مجموعة قصصية

سَـــــلونْ

سعادة أبو عراق

شـــمنت

لقد جاء (شمنت) ...عبارة تتردد منذ الصباح على شفاه أهالي سنجل ، وأهالي ترمسعيا ، بكثير من الدهشة والاستفسار ، يقول بعض الشباب الذين يعرفون أن شمنت هو محمد عبدالرحمن الشحادة:
ـ ما أهمية شمنت ؟ وأين ذهب حتى تكون عودته مدوية هكذا ؟ إنه لا يغادر البلدة لساعاتٍ حتى يعود .
محمد بن عبد الرحمن الشحادة , صاحب الكنية هذه ، التي لا يدري متى أطلقت عليه, غير منزعج منها ، ولا يتضايق ، حينما يسأله أحدُ الفضوليين عن أصل هذا الاسم ، بل يخبره أن شمنت رجلٌ ألماني كان يسكن خربة سلون وبني فيها بيتا من عدة غرف متجاورة تهدمت بعد أن غادرها عام 48 وبقينا نسميها بيوت شمنت ، هل تذكر خربة سلون؟
هؤلاء الذين تقل أعمارهم عن ثلاثين سنة ، يتفاجؤن بهذه الأحجية المعلوماتية ، ويسألون عن خربة سلون وأين تكون. يرد عليهم كبار السن ، وهم غاضبون من جهلهم الوطني هذا:
_ مستعمرة شيللو _ ألا تعرفونها ؟ _ بنيت فوق خربة سلون ، أنسيتم ذلك يا أغبياء ..! أمّا جيل فاضي ..!!!
يقولون ذلك بحدة ونزقٍ ومزاج معكر.
يتمتم أحدهم بغيظ وحرقة :
_ إن شاء الله سنسميها قريبا خربة شيلوه...!
يقول الشباب الذين تثقل ذاكرتهم الوقائع المتلاحقة والتاريخ الأليم ، كأنهم يحتجون على الاستهانة بذكائهم:
_ ذكِّـــرونا.....
أي ذكرى أليمة تلك التي يريدها الشباب ذكرى اليوم الذي أفاقوا فيه وهم يرون الأسلاك الشائكة تحيط بخربة سلون بما فيها بيوت شمنت، تحدد الأراضي التي ستصادر، ومكان المستعمرة التي ستقام . تجادلوا كثيرا حول هذا الكابوس الذي غُمَّ عليهم , فراحوا يأولونه بما يدفع عنهم الفأل السيئ ، لكنهم بعد أيام رأوا جرافات صفراء ثقيلة، تجيء لتجرح الأرض وتغيِّر وجهها، تمعن بلا رحمة في تهشيمها تزيح الصخور وتمهد الأرض وتسوي المنحدرات ، وتقتطع من ألأرض ما تشاء ، من أراضي ترمسعيا وسنجل وقريوت وجالود ، سرقة على رؤوس الأشهاد ، وعلى مرأى ومسمع من الضجيج والغبار ، لا يملك أحد إزاءها الإغضاء أو السكوت ، لابد من الاحتجاج والشكوى ، لابد

من الاعتصام في سهل القطاع ، قريبا من الجرافات وفوهات البنادق ، لابد من الذهاب إلى المحامين الإسرائيليين ليرفعوا لهم قضيتهم إلى المحاكم الإسرائيلية ، يبذلون في ذلك الجهد والمال والوقت ، وهم يعرفون أنهم يلهثون وراء قضية خاسرة ، كأنه عملٌ عابثٌ يتلهون به ، لكنهم يدفعون عن أنفسهم تهمة الاستسلام ،أمام الأجيال القادمة، وينقلون إلى عدوّهم رسالة مفادها أنه لم ينتصر ، وأنهم لم ينهزموا أيضا.

يكتشف أهالي ترمسعيا أنهم خجلون من أهالي سنجل ، كما أن أهالي سنجل خجلون منهم ، وكذلك أهل قريوت الذين ما عادوا يمرون من هناك ، كأنهم يعتذرون عن ذنب اقترفوه معاً، أو أن وباءً أصابهم جميعا, جعلهم يَستَخفُونَ من نظرات بعضهم، صمتوا حتّى تعتق حزنهم ، حتى ما عادوا يذكرون شمنت، إلى أن خطر على بال أحد الأذكياء ، في حمأة البحث عن أسبابٍ لهذه الكارثة فقال:

- لابد أن يكون ذاك اليهودي شميدت الهارب من ألمانيا، هو الذي أسس لهذه المستعمرة وخطط لها قبل خمسين سنة، وما كانت البيوت التي ابتناها إلا النواة الأولى لهذه المستعمرة,

أصبح التذكر مريراً ,والندم قاسيا حينما اكتشفوا أنهم ابتلعوا سماً ، فلماذا أحبوا الألمان كل هذا الحب نكاية ببريطانيا؟ وأحبوا شميدت وعرَّبوا اسمه إلى شمنت؟ وتركوه يسكن خربة سلون آمنا ، تحت حمايتهم ، يشرب من نبع العين ويبني على أطلالها بيته ، لم يسألوه وفق العادات بعد ثلاثة أيام عن مطلبه ، ولا بعد ثلاث سنين , ولاموا ذاك الذي بادر وسأل عنه حكومة الانتداب في القدس، فقيل له ما شأنك في هذا ، إنه عالم آثار وتحت رعاية المندوب السامي ، لذلك تركوه ينبش الأرض كما يشاء بعد أن تأكدوا أنه لا يبحث عن الذهب ، بل يدق بعض الأوتاد ويحدد المعالم ، ويرسم خطوطا على الورق ،ويدون في دفاتره الكثير، يزورونه ويزورهم في بيوتهم ومضافاتهم ، يأكل من زادهم ، ويتحببون إليه ويتحبب إليهم ، وهاهو عبد الرحمن الشحادة يجعل من اسمه كنيةً لابنه محمد.

قلّة هم الشيوخ الذين زادت أعمارهم عن السبعين، ممن عرفوا شمنت عن قرب ،فقد رحل عام 48، رحل ولم يودّع أحداً ، لذلك لم يأسفوا كثيراً على علاقة عابرة ، إذ هرع اللصوص إلى بيته وخلعوا عنه الأبواب والشبابيك ، وأخشاب السقف ، وتركوها خربة غير

مسكونة، وامّحت المشاعر التي كنّوها ذات يوم له، حتى عتمت صورته في الخيال، وتوارت في ضباب الزمن .

ها هو يفاجئهم على غير موعد ولا دراية ، يوقظ الذاكرة ويمسح عنها الضباب ، يأتي بسيارة فخمة من الدفع الرباعي يقودها سائق مخصوص، كي يكون ضيف الشرف في هذا الاحتفال الذي يفتتحون به مستوطنة شيلو ، هرما قد بلغ من العمر عتيا ، وكما هو دأبه ، يلبس ذات البرنيطة وثياب الفوتيك العسكرية والبنطال القصير ، يتدلى من رقبته منظار، وتسند قامته عصا يتوكأ عليها ، تتنسم روحه عبق الشباب ، يتفقد خرائب بيته التي أصبحت شيلوه ، يرقب من خلال منظاره الجبال المحيطة بسهل كفرستونا ، يراها كما كانت مطرزة بالزيتون واللوز ، يتذكر سلال التين والعنب التي كانت تأتيه هدايا كل صباح ، يتذكر أغنيات الرعاة والحصادين والحراثين ، يتذكر الزعتر والميرمية التي يجمعها من بين صخور الخربة ، يتذكر الذين كان يوما يألفهم ويألفونه .

السيارة تجتاز سهل القطاع صاعدة إلى سنجل ، يبحث عن بعض المعالم التي وقرت في ذاكرته، وزاد عمرها عن خمس وثلاثين سنة، عبر أحداقه الهرمة التي تتمعن في الأشياء ، لكن عيوناً تحدجه بقسوة ، يصعب عليه تجاهل مشاعر العداء التي تشع منها ، والفتية الذين يتحفزون من على البعد للمناوشة ، فالسيارات الإسرائيلية عرضة دوماً للحجارة والسباب ، تحياته التي يلقيها لا صدى لها ، كأنها رموز أو إيماءات غير مألوفة.

هيهات أن يتذكر شمنت الأصدقاء الذين أسعدوه ، وساعدوه ورحبوا بهذا الألماني الذي يكره اليهود ويكره الانجليز ، لابد أنهم عرفوا فيما بعد أنه يهودي ، والذي لم يكن يعرف فليعرف الآن ، فهو آت بسيارة من سيارات مستعمرة شيلو ، آت بالذهنية القديمة التي تسمح للضيف أن يحل فجأة ، وأنه مرحب به دون شروط .

توقفت سيارته وسط ساحة الميسة ، قال له السائق العليم بالمنطقة ، هذا قلب البلدة ، فتح السيارة بتؤدة ، وكان صعبا عليه أن ينزل دون مساعدة، الجالسون في المقهى يتجاهلون ما يحدث، وكذلك المارون في البعد ، فقد علمتهم التجربة إن يتحاشوا اليهود مهما كانوا ، أما الصبية فلم يكبحوا فضولهم ، فوقفوا يستطلعون ، يشاهدون هذا العجوز يخرج رجليه ، لكنه يحاذر أن يسقط عليهما من السيارة المرتفعة ، يساعده السائق على هذه المهمة الشاقة، يقف بصعوبة متكئا

على السيارة ، ويأخذ نفسا ويسترجع قواه ، ويزداد الصبية اقتربا ، بينما الرجال في تشاغل متعمد ، حدق بأحد الصبية وقال بلكنة غريبة :

_ وين المختار...؟

لم يكن المختار بعيدا ، ولم يكن غافلا عما يجري ، وحينا رأى الصبية يشيرون إليه ، تحرك نحوه ، وسلم عليه فبادره شمنت :

_ أنا شميدت ، أو شمنت ، هل تذكرني ؟

لا يتذكر المحتار أنه رآه ، كان صغيرا حينما سمع أنه غاد سلون ، فقال :

_ لعلك جئت لأمر مهم ، يستحق كل هذا العناء

_ مهما كان الأمر ..ألا يستحق أن أجلس لأكلمك فيه ؟

_ لابأس.... تفضل إلى مجلس البلدية !

كان الدرج عاليا نحو قاعة المجلس ، وكان الحر مجهداً ، وكان العجوز دميةً من قماش ، متهالك الجسم مشتت الذهن ،عاد لتوه من حفل افتتاح مستوطنة شيلو ، وقد الحّت عليه فكرة مجنونة أن يزور القرى التي عرفته ، ربما ليرى شيلو من ذروة الجبل في سنجل ، هل جاءت كما خطط لها وتخيل ؟ وهل ما زال الناس هنا بسطاءَ دمثين ودودين ؟ وهل ما زالت الصلات التي أوثقتها مَعَهُم معقودة ؟ وهل يمكن أن يجعل شيلوا رابعة هذه القرى أو خامستهم،

كانت الدرجات مختلفة الارتفاعات ، بدائية التشذيب غير مستوية الحواف، وكانت العيون ترقب صعوده المتهالك البطيء ومساعدة السائق له، أشفق الصبية الذين تحفزوا لرجمه على هذه الشيخوخة المتآكلة، لكن قرائحهم المتوقدة ناكفتهم هذه اللحظة، فلاذوا بالتمنيات اللئيمة.

وعلى مرأى من أحداقهم المصوبة نحوه، تزل قدمه ويفلت من اليد التي تسنده ....، يتهاوى ، يتدحرج من على درج ليس له إفريز ، فيسقط من الدرجة السادسة نحو الأرض ، ركض الجالسون نحوه والأولاد الشاخصون إليه، يتفقدون عجوزا فقد الحياة.

قال احد الذين يحسبون حساباً لإسرائيل ، الحمد لله مات ولم يمسسه أحد.

قال طفلٌ متشفٍ : الدرجة هي التي دفعته فقد رفضت أن يدوس عليها

كلـــب دانـــي

طلقات ثلوث السكون، إعلان سمج عن حادثٍ جللٍ في (شعب النمر) منطقة مقابلة لمستوطنة شيلّو, أهالي سنجل خبيرون بأصوات الطلقات، تعرف آذانهم نوع السلاح ومصدره ، وتعرف ما إذا كانت في الهواء أم أصابت أحداً، تستقبلها بهلع وترقب واستنفار، فأسماعهم مستيقظةٌ دائماً، متنبهة لأصوات الطلقات وهدير الحوّامات الطائرة .

وهناك أيضا _في مستعمرة شيلو _ ، أذانٌ قلقة وقلوبٌ تخفق عند سماع الطلقات، وخاصة ليليان التي طلبت من ابنها روني أن يذهب مفتشا عن كلب الصغير داني، لم تكن تعلم وقتها _ في ساعة الغضب والانفعال _ أن الجهات التي سيفتش بها، واسعة تمتد في أراضي سنجل وترمسعيا وقريوت ، وأن الكلب لا يعرف الحدود ، وأن التوغل بها خطير، وخاصة لفتى يستقبل عامه السابع عشرة ، ولم يتعلم بعد كيف يكون مقاتلا واسع الحيلة.

في سنجل كان التوتر عاماً، فهم يعلمون أن الطلقات نذير مشكلة ، والمستوطنون وحدهم في شيلو هم الذين يحملون السلاح، وبالتالي هم الذين يطلقون النار، ولا بد أنهم أطلقوه نحو واحد منهم، لذلك كان التساؤل ساخنا، والجواب عليه محيرا ،فأنى لهم أن يعلموا ؟ إلا أن ينطلقوا صوب شعب النمر، فالعلم بما حصل لا يكون بالتخمين، أو ضرب الودع.

ليليان , أو أم روني ، تابعت الاعتناء بداني، رغم قلقها الذي يتعاظم في صدرها، فهل تراها عرَّضت ابنها للخطر من أجل داني وكلبه المدلل، داني الذي تعوضه عن كل مكوناته الشخصية الناقصة بمزيد من عطفها، فهل بلغت بها القسوة أن ترسل أخاه للبحث عن الكلب في وسط أعداء متحفزين للقتال، فالحسرة التي تأكلها على هذا الصبي المختل عظيمة، فأعاقته في نموه وعقله وسلوكه، يعاني مما يشبه التوحد أو التوحد في بداياته، طفل عصيّ على التدجين، والتواصل مع الآخرين يمارس حركات متواترة كأنّه آلة لا تفرغ بطاريتها، يتلهى بأشياء تافهة، لا أحد يعرف كيف تلفت انتباهه، فتتعلق بها روحه وتكاد تغادره إذا ما فقدها، لقد أصبح مولعا بهذا الكلب حد الإدمان، فبكاؤه لم ينقطع منذ أن غاب الكلب، فيستسلم للإكتئاب حينما ينهكه البكاء، وتحزن أمه عليه حُزْنَ يعقوب أو ينوف.

كان عويل الفتى داني، وحيرة الأم وبؤسها، تضرم نيراناً فتاكة في صدره، تشحن شجاعته فتجعله يركب الخطر ويمضي متجاوزاً حدود شيلو إلى بساتين سنجل وضواحيها، حيث خمن أن الكلب هناك، روني الذي يتهيأ للتجنيد في الجيش، يمارس بعض مهام الحرس في المستوطنة، كمن يعد نفسه لمهمات الجيش التي ستوكل إليه، أو أن يقوم مقام الأب الغائب، في تهدئة الأم التي أنهكها الحزن الصامت، وتحاول ما أمكنها إطفاء البكاء المستمر لداني، لابد من إيجاد هذا الكب الذي انصرف بلا استئذان إلى مناطق فيها الكراهية والعداء، لذالك مضى باحثا متسلحا بمسدس، يوقن أنه سيستعمله في مجتمع العداء والكراهية.

مضى في شوارع شيلّو، غير عابئ بالحراس المنتشرين عند مداخل المستوطنة، غير آبه بالذين شاهدوه وهو يخترق الحدود الغربية إلى شعب النمر، مندفعا نحو أصوات الكلاب الكثيرة الضالة في الأرجاء، وصل مكب النفايات الخاص بمناسف الأعراس ،حيث رأى الكلاب تأخذ نصيبها ساكتة لاتختصم، ورأى غير بعيد منها الطفل فايز يجلس مع كلب داني، مستأنسان يأكل منه اللحم الذي انتقاه له، ها هو قد ظفر بالهدف، وعلى هذا السارق الذي استطاع أن يستغل شهوة الكلب، أن يدفع الثمن، وأن يفرغ طاقته وانفعالاته التي شحنته بها عاطفتهُ المفعمة لداني وأمه، فأطلق النار عليه، فأخطأ الفتى وأصاب كلب داني، فأرداه قتيلا، هلع الفتى فايز ، صرخ وجمد خوفا، لكن روني ازداد حزنا وشعورا بالذنب والخطأ واختلاط الأفكار والمشاعر، لحظة أن

وجد فيها نفسه مثقل الضمير، مقيد التفكير، فلم يجد إلا أن يطلق النار على فايز، لعل في ذلك عدالة تبرد ضميره.

الحراس الذين شاهدوا روني يجتاز الحدود الغربية، وأغضوا أعينهم عنه، كانوا أول من هبَّ نحو مصدر الطلقات، هناك في منطقة شعب النمر، متحفزون متأهبون للقتل ، وإطلاق النار .

السناجلة الذين يتوزعون في الحقول ،انطلقوا أيضا نحو شعب النمر ، متوجسين ، يتوقعون خطبا جللا ، القريبون منهم يسمعون استغاثات إسماعيل الهلعة

_ يا ناس ... الحقوا ... الحقوا فايز ... قتله مستوطن من شيلو

لقد كان إسماعيل أول من رآه بعد أن أطلق الرصاص على الكلب ، رأى الفتى فايز محاصرا مذعورا ، لا يقوى على الصراخ ، رأى المستوطن واقفا بهدوء يصوب إليه مسدسه ويقتله برصاصات ثلاث ، كأنه يتدرب على إصابة هدف .

الحرس المسلحون الذين وصلوا الموقع في شعب النمر ، تفاجأوا بالسناجلة يهرعون ، وجدوا روني محاطا بهؤلاء ، يظن المستوطنون أن روني قد وقع في كمين كبير ، أطلقوا النار اتجاههم ، لآذ السناجلة بالسنासل والأشجار ، اقترب المستوطنون من روني ، وجدوا الفتى فايز جثة هامدا , والكلب هامد بجانبه ، قالوا له يشيرون إلى الفتى:

- ماذا فعل لك ؟

_ أغرى الكب بالعظام وسرقه .

_ ولماذا الكلب ميت ؟

_ أصبته بالخطأ .

_ مسكين هذا الكلب .

ولم يسألوه لماذا أطلق النار على فايز ، ذلك أنه أمر يمكن تعليله ، فلا داعي لمعرفة الحقيقة ، غادروا الجثة وتركوا للسناجلة أن يحملوها بأكفهم وسواعدهم وحزنهم ، وقلة الحيلة التي تكبلهم ، مدوه في البيت كي تبكيه أمه وأخته وأبيه ، بينما تبكي ليليان الكلب الذي ما عاد الأمل المرجو لإسعاد داني .

وصل الحراس المسلحون المستوطنه ،عائدين بانتصار يتحدثون عنه ،يتحدثون عن خطة حاكها السناجلة لاختطاف روني ، لكنهم هربوا وتراجعوا وهم يرون شجاعة روني ، حينما أطلق النار على أول المهاجمين وأرداه قتيلا ،

هكذا قال حراس شيلو ، وهكذا قال ضابط كبير في بيت إيل للصحافة ، وقالها أيضا للمحامي الذي حمل الدعوة للقضاء الإسرائيلي.

العراقـــــي

قليلون هم الذين يعرفون اسمه العربي الذي تركه في العراق ، كان شاباً في بغداد ، منسجماً مع هذا التكوين الحضاري الممعن بالألق ، يحب شوارع بغداد وصبايا بغداد وأكلات بغداد ومقاهي بغداد والسمك المسقوف والباجّة الصباحية ، تسعده عرائس النخيل التي ترقص بقذالها الذهبية ، والموال العراقي الذي يطول حتى يبتلع الزمن ، بل يلوّنه بالحزن العميق الذي تسترخي معه النفوس المتعبة .

من أوقد في نفسه هوس الهجرة من بغداد ؟ حتى جعله يترك متجر أبيه لكي يسافر إلى إسرائيل ، من صوّر له أن إسرائيل تفيض عسلا ؟ وان اليهود بها يحققون ذاتهم ووحدتهم ويتخلصون من الشتات، سافر وكأنه هارب من معتقل، لم يسأله أحد في المعابر عن وجهته، فالدولة لا تسال مواطنيها عن وجهتهم، لكنهم قالوا له إن العراقيين أغبياء، استمرأ التعليل ، كما استمرأ قولَ من قال عنهم إنهم متواطئون مع مؤامرة الهجرة ، وتسمين إسرائيل .

ها هو على تخوم الثمانين وما زال غير قادر أن يتكلم العبرية جيداَ ، دائما يخلط الكلمات العبرية بالعربية ، يعطي حروف المد صبغة عراقية ، لم يتخلص بعد من إمالة الحروف التي ميزت قبائل بني تميم في العراق ، لذلك لم تكن حياته ناجحة أو كما أمل ذلك ، فاللغة العبرية هي سلم النجاح، لذلك ساقه الإحباط إلى مهن بسيطة، دلالاً للأثاث المستعمل، يشتريه ويبيعه حتى أقعده هذا العمل المضني وأسلمه إلى شيخوخة مبكرة، جالسا وحده ببيت صغير في شيلّو.

أربع سنوات مرت عليه، انه لم يسترح من قبل كما يستريح الآن، يجلس على كرسيّ مستسلما لأشعة الصباح القادمة إليه من ترمسعيا، فقطار العمر قد انزله منذ زمن ، وأبقاه يحيا بلا أمل يستقطبه، ما عاد يقوى إلا على استرجاع الذكريات والصبا الممرع في شارع أبي نؤاس، يتذكر تلك الأغنيات العراقية، التي تملأ مسامات الأذن حتى الاستغراق، إنه (ناظم

الغزالـي)، إنهـا (سـليمة مـراد)، أنهـا (مـوزة سـعيد)، انـه (داخـل الحسـن) ، ذاكـرة رائعـة تلـك التــي نسـترجع مـا قبـل خمسـين سـنة ، تفاصـيل اللحـن والطرب الأصيل .

كل شيء في العراق جميل، كما مساءات الصيف في شيلّو، إنها رطبة باردة تأتيك طازجة من البحر، ويأتيه من ترمسعيا لحنا عراقيا جميلا ، إنها حفلة عرس، ليلة الحنّاء التي تضج بالدبكة والغناء والسمر، وهذا المغني الشعبي الذي يجيد الموال العراقي، لماذا يغني الفلسطينيون الموال العراقي، هل يترجم لهم حزناً دفيناً، أم هي المسافات الوهمية بين العرب، حيث يقطعها الفن بلا استئذان.

أذنه العجوز ما عادت قوية كما كانت، لكنها ما تزال عطشى لأنغام أفاقت عليها، تظمأ إليها كنبع جبلي بارد، إحساسها الموسيقي لم يتثلم بعد، تحفزه كقطة اشتمت شواءً، نهض عن كرسيه الذي يستقبل منه نسيما مشبعا بالندى ، تحرك ببطء عجوز، يسير رويداً في ظلمة الفوانيس الضعيفة، كأنّ بوصلة تقوده لمصدر الغناء، لا يقوى أن يحيد، كما السفينة الشراعية، يمشي نحو الشرق، اخترق السياج الشائك المحيط بشيلّو، ومضى نحو ترمسعيا، حيث سهرة الحنّاء ما زالت تشتعل بفيضٍ من الحماس، و(موسى حافظ) يترنم بالموال العراقي، الذي ينزع القلب عن هدوئه، اقترب ولم يشعر به أحد، هكذا اعتقد، رغم أن الترامسة يعرف بعضهم بعضا، ويعرفون اليهود الذين يحاولون التسلل لإقامة الودِّ وتقريب المسافة، أو التطبيع كما يفهمه العرب، لكنَّه لم يفكر بذلك، بل كان مأخوذاً بهذه المواويل العراقية اللحن، التي يجهل كثيراً من معاني كلماتها، أصبح منسجماً مع ذاته وغادرته الازدواجية التي تضنيه، الآن أفاقت في ذهنه أزمنة الصبا في شارع الرشيد وشارع أبي نؤاس، وسويعات الأنس مع حبيبات حول طاولة المشروب والمازات، عشقنه بقدر ما ذوّبنه فتنةً، نسي أنَّه يهودي من مستعمرة شيلّو، بل عراقي حق له أن يترنم ويتمايل حتى هم بالرقص، لولا أن خذلته قواه، لكنه تعشّى بالكباب العراقي والكنافة النابلسية.

هكذا نسي نفسه وأضاع الوقت الذي تسرب من تحت دثار الفرح الذي تغشّاه، وغادر - مع آخر المحتفلين - نحو شيلّو، مضى بهمة قوية لم يستشعرها من قبل، قوياً نشيطاً، غادرته ألام المفاصل واليأس والاكتئاب والشعور بالوحدة والاغتراب، مضى حتى ضل طريقه، لم يهتد للفتحة التي أحدثها في السياج، وراح ينفذ من ثغرة أخرى يحاول فتحها وتوسيعها، لكن طلقة من الحرس الليلي أخمدته، هوى دون حراك، دون صرخة مصاب، وارتمى على هذا السلك الشائك المشدود.

مات ولم يسمع تلك الرشاشات التي انطلقت نحو ترمسعيا، تحاول أن تقتل عصابة (مخربين) ينوون التسلل إلى شيللو.

كان الصباح حزينا، فالعجوز، اخترقه رصاص كثيف، عرفوه جيدا، ولكن... لم يأسَ عليه أحد، إنما انطلق جنود ومحققون يبحثون وراء كذبة تواطؤا عليها، عن أناس توهموهم وقد حاولوا اقتحام المستوطنة، يطلبون حقا لعجوز قتل على السياج، ويذرفون دمعا في متواليات الأخبار على إنسان لم يبكه أحد .

عقبة الخان

عقبة الخان ، ذلك السفح الذي يصعده المسافرون من اللبَّن الشرقي مروراً بسنجل ، في طريقهم إلى رام الله ، طريق لولبي ، صنعته الحمير ، حينما كانوا يطلقونها تتسلق هذا المنحدر، فتراها تسير على سجيتها، في طريق صاعد هيّن الميل، حتى تصل ذروة لا يمكنها أن تمضي بها لعلو أكثر، فتنقلب في سيرها لترتقي بنفس الميل الصاعد، وهكذا خطت بحوافرها هذا الطريق منذ أن كانت المواصلات بين نابلس والقدس.

هي عقبة الخان ،التي أصبحت تعرف بعقبة اللبَّن، لأنه ما عاد هناك خان تستريح به الدواب أو المسافرون، بل بقايا نبعة ماءٍ تدعى (عين مخيمر) ، يرتوي منها مخفر أقيم على الحدود ما بين لواء القدس ولواء نابلس

أما التوراتيين من مستوطني شيلّو، وخاصة أتباع غوش أمونيم فإنهم يرونها الحد الفاصل بين دولتي يهودا والسامرة ،لذلك حينما يصعدونها فإنهم يتوهمون لمس التاريخ، لعل شكوكهم تستريح قليلاً، لذلك غضب كثير من مستوطني شيللو من تحويل الطريق، لاعنين الجرّافات العملاقة التي قهرت الصخور، في وادي المغسل لتجعل الطريق تسير مع الوادي إلى سهل اللبَّن انطلاقا إلى نابلس.

وزخريا من أولئك الذين يستهويهم السير على هذه الطريق المتعرج ، وهذه البقعة المقدسة، كأنهم يستبطئون الوقت ريثما يكملون حلمهم التلمودي، يصعدها ابتداء من عين الماء التي لم تعد تخدم مخفرا أُقفل عام 67، ولا المسافرين في قافلة حمير أو جمال ، ولا السيارات التي تئن طوال هذه المنعرجات، فزخريا الذي جاء مع أول القاطنين في هذه المستوطنة، جاء مهووسا بفكرة تدفعه للتثبت من موضع الأمكنة التي

وردت في التوراة، وذهبت به فرضيته إلى إثبات أن موقع شيلّو هو مكان إقامة صموئيل، فنصف عقله موجود في هذه الدنيا ونصفه الآخر مع إيحاءات التوراة وترهات التلمود.

زخريا يسير بسيارته القديمة، نحو نابلس ، يجتاز أماكن لا يعرف أسماءها، وأحياءً ما زالت تنمو ببطء وبذخ ، عمارات طابقية وفلل مستقلة، كيف يجرؤ العرب على هذا الصرف المبالغ به، إنه شيء مرعب بقدر ما هو مثير للشهية، لكن على أية حال ما كان على الإدارة المدنية أن تسمح للسناجلة بهذا التوسع العمراني بشكل يوقف مستقبلا توسع شيلّو ومعالوت، إنها فكرة لم تخطر ببال احد، عليه أن ينبه المسئولين في شيلو وبيت إيل، لكي يوقفوا هذا الطوفان العمراني، تحمس للفكرة حتى لم يتنبه لهذا المكان الذي يطل على المنطقة كلها، كان من الأحرى أن تكون المستوطنة هنا، وهذه فكرة ثانية ،لكنه تنبه للكوابح التي أسرف في الضغط عليها، لعلها احترقت، وما عادت تبطئ مع انحدار السيارة، بل ما عاد يسيطر على السرعة، فالمنعطف الحاد يداهمه، ينذره بصدام عنيف، فلا بد أن ينعطف بقوة وإلا فسوف يرتطم بالجبل، لم يكن أمامه إلا أن يلوذ يسارا تجنبا لمواجهة مميتة ، لكن السيارة تنزلق وبختل توازنها وتجنح خارج الطريق وتنقلب، وتكاد أن تمضي متدحرجة حتى مستقر الوادي، لولا أن تصدّت لها صخرة صارت لها حاجزٌ، وخلفت ضجيجا كصوت الانفجار، وغباراً صاعداً منذراً يما جرى .

كان التدهور أكثر من ملفت للرعاة والحراثين والمسافرين بسياراتهم على نفس الطريق، هبّوا للإنقاذ، فوصلوا قبل أن يهدأ الغبار، كانت السيارة على ظهرها تنفث الغبار والضجيج والإطارات ما زالت تدور في الهواء كسلحفاة تحاول الاعتدال، وزخريا ما زال عاجزاً عن الحراك ، إنه يشتمُّ رائحة البنزين التي تتدفق من الخزان، جعله ذاك أكثر رعباً، يصرخ مستنجدا بفجيعة، لا يؤمل من هؤلاء الأعداء مساعدة حقيقية، ها هو يراهم وهو منكفئ على رأسه قادمين إليه، أيقن الموت حينما توقع أن يشعل احدهم البنزين المنسكب من الخزان، إن أحداً لن يتهمهم بذلك، ما دام الحريق محتملا، كان يصرخ بلغات لا يعلم بمعنى كلماتها أحد، لكنهم وصلوا إليه، سمعوا صياحه المذعور، شدوا السيارة فعادت إلى جانبها ، ثم شدوها أكثر فاستوت على عجلاتها، الباب لم يفتح، سحبوه من الشباك المفتوح زجاجه، مدّوه على الأرض منهكا مصابا خائفا بأن يفتك به أحد، تفقدوا جروحه وكدماته، وجدوا انه بحاجة لمستشفى، حمله احد المنقذين بسيارته، ذهب به إلى نابلس ، حيث أقرب عيادة للطوارئ .

لا يعلم زخريا ما فعلته الدوريات بالحراثين والرعاة وبقية المنقذين، وهم يحققون بالحادث، وما يعلم أيضا كم مضى في غيبوبته على سرير في مستشفى نابلس، لكنه يعلم أنه أفاق بين أيدي ممرضين وأطباء عرب، وانه أمضى ثلاثة أيام يراجع أفكاره التي لُقنت له من غوش امونيم ، متفهما أن الفلسطينيين بشرٌ عاديون، وأنهم ليسوا أشراراً كما قيل له، وانه كان بإمكانهم أن يقتلوه، أوفي أحسن الأحوال تركه لمصيره، وأيقن بعد طول مراجعة، أن أفكاره التي يحملها ليست صحيحة أو بريئة.

أمضى أسبوعا من النقاهة في دفء شيلّو، فما قدَّمَ له السناجلة كان ديّنا يصعب الإيفاء به، وعليه أن يرد الجميل، ويشكر من ساعده في محنته، هذا اقل ما يمكن فعلة.

مشى متوكئا على عصا، ركب سيارة نحو سنجل، توقف عند أول دكان كبيرة، يتجمهر في ساحتها أناس كثيرون، لم يتفاجأ به أحدٌ، توقفت السيارة ثم ترجل متعبا يتثاقل على عصاه، وقال بلغة لا تُفهمُ كلماتها بسهولة ، إنه يسأل عن الذي أنقذه عندما تدهورت به السيارة ، تقدم منه شخص يعرفه بنفسه ، وهو يقول :

_ الله وكيلك ، تركنا السيارة حينما جاءت دورية قوات الحدود، اخذوا السيارة ولم يسمحوا لنا أن نقترب منها، إذا كنت تعتقد أننا سرقنا شيئا .....؟

قاطعه زخريا ، فقد خجل من الأفكار السيئة التي يحملها عن اليهود وقال :

- لا ..لا... أنا لا اقصد ذلك ....
- يا خواجا ، نحن لا نفكر إلا بالمساعدة في هذا اللحظة.
- أنا ممتن لما عملتموه معي ، إنه فضلٌ لا املك سداده .
- لا شكر على واجب يا خواجا .
- أريد أن أرد الجميل لمن أنقذ حياتي، أريد أن أتعرّف إليه ،أزوره وعائلتي، لنعبر عن امتناننا وعرفاننا بالجميل .

تفهم الرجل موقفه، وسلوكه الإنساني، ولكن عجز عن التعبير المناسب ، فقال كأنه يكفيه عناء الضمير.

_ إذا أردت أن تشكرنا ، فأرجو أن لا تزورنا، ولا تزجنا في علاقة تطوقها الشبهات عند أهل شيلو وأهل سنجل .

فوكـــس

مذ نشأ هذا الفتى في سنجل ، عَلِقَ به اسمُ(فوكس)، وما عاد يعرف إلا بهذا الاسم ، فلعل الذين يملكون انحرافا غير سوي، يطيب لهم الخروج عن القوانين والأعراف حتى عن أسمائهم التي ارتضاها لهم آباءهم ، فما كان ليكتفي أن يَسلِبَ الأولاد قروشهم ويخطف من أيديهم أكياس الشبس ، ومن جيوبهم الحلويات ، بل يستفرد بهم ويضربهم ، يرمي ليلا على زجاج النوافذ حجارة ليكسرها، ويمسك قططا وكلابا ويشعل بها النيران ويتركها تركض مشتعلة حتى تأخذ منها النيران مأخذها، فتسقط هامدة وهو ينتشي طرباً وسروراً .

كثيرا ما اشتبك الناس مع أهله حينما أحسوا أن عمله ليس بريئاً، يمكن تجاوزه مع شيء من التأنيب والتقريع ، إذ لم تكن شقاوة عادية من التي ترافق مرحلة المراهقة وتزول مع تقدم السن، لذلك أصبح مشكلة اجتماعية في البلدة، فلا أهله يمكنهم ضبطه، ولا يمكنهم التخلي عنه، والناس لم تعد تحتمل المزيد، ولا بد من حل، فقال احد التربويين إنه مصاب بالعنف المفرط ويحتاج إلى طبيب نفسي، ليعدل سلوكه ، رفض أهله هذه التعليل المعيب الذي يقدح بشخصيته وسمعة العائلة ، لكن عائلته الموكلة بحمايته كما تقتضي الأعراف العشائرية، تبرأت عنه، وأبقته على ذمة أسرته وعليها أن تتحمل نتائج عمله وحدها .

والده المسكين الذي أعياه الاعتذار للناس، وأفقرته التعويضات التي كان يدفعها للمتضررين، استسلم في النهاية، وكان يقول للناس، لم يبق عندي إلا زوجتي وبناتي، إن شئتم خذوهن , وخذوني كي ارتاحَ من هذا البلاء، كان يثير الشفقة وهو يبكي حظه العاثر ، وحينما اسماه مفلح، لعله يفلح ويكون له عونا في هذه الحياة، لذلك فقد ذهب – على غير المألوف ــ إلى الحاكم العسكري الإسرائيلي ليشكوه ويتبرأ منه، وخاصة وقد بلغ العشرين، وأن الإدارة العسكرية هي التي تتحمل وزر أعماله .

وما احتاجت إدارة الاحتلال إلى كثير من الوقت لكي تمسك به، ولم يكن محترفاً كي يحسن التخفي والاختباء، أمسكوا به بعدما سطا على نوفوتيه في رام الله، هكذا وضعوه في السجن، استغرب إذ أودعوه منفردا في غرفة نظيفة، لم يحتقره الحراس ولم يؤذِهِ احد، بل احضروا له

ساندويش شاورما للعشاء وعلبة سجائر، وزجاجة ماء باردة، نام على مهل وأفاق على مهل، استدعاه الحراس ضحى إلى مدير السجن، ما كان يتوقع أن يرى مجموعة من رجال المخابرات والأطباء وعلماء النفس، يتدارسون باهتمام سوابقه كي يكوّنوا صورة لمعماره النفسي، ومكونات شخصيته، سألوه أسئلة كثيرة ، تركته حائراً ، لا يقوى على فهم ما يجري ، يعجب من هذا الاعتقال المريح.

اغتبطت عائلته وأسرته وكل البلدة، اغتباطا غير معلن ،حينما علموا بسجنه، فقد تخلصوا من ميكروب يفتك في هذا المجتمع، تمنّوا لو يطول اعتقاله ، أما (فوكس)، فقد استدعاه ضابط كبير، استقبله كرجل مهم ،أجلسه قبالته، واحضر له فنجان قهوة وأولع له سيجارة، ارتاب حتى تحرج في قبولها، لكن طمأنه بأنها لا تحتوي شيئا.

قال له بعد أن هدأت وساوسه.

- أنت بحاجة لمن يقدّر قيمتك ....!!!

استرخى ولم يدر بما يردُّ به.

- أنت شجاع لدرجة أنك لا تخشى شيئا ..!!

ظل صامتا إذ لم يتعود مثل هذا الإطراء الجميل .

- نحن نستطيع سجنك بأية تهمة سنينا طويلة , ولكننا لن نفعل ، ولكن سنطلقك حرا تفعل ما تشاء مقابل أن تفعل لنا ما نشاء .

ربما لم يستوعب الفكرة، من خلال نظرات عينيه الجامدتين .

- سنطلقك في مساحة الضفة الغربية، تسرق تسلب تغتصب، وفوق ذلك تبيع المخدرات .

اتضحت له الفكرة بأنه أصبح محميَا، وأن أحدا لن يلاحقه.

- وسوف نعطيك برنامجا، في أي المناطق سوف تكون ، تذهب للمراكز الأمنية هناك ، فهم يخبرونك بمهمتك ، أو تخبرهم أنت بما تنويه من فعل ، وربما يسلِّمونك المخدرات التي ستروجها ، وستأخذ راتبك من المخدرات التي تبيعها .

نسي الناس أمره ، إذ انشغلوا بما يقال عن اتفاقات أسلو، هذا الكلام الذي فاجأهم، لا يدرون على أي منطق يعرضونه، يتجادلون ويختصمون، يتفقون ويختلفون، ويرون بذهول أفواج الفدائيين يدخلون، ويرون السلاح لأول مرة يحمله الفلسطينيون، إنه حلم ابعد من أن تتخيله رؤاهم .

يفيق أهالي سنجل على مطاردة للشرطة الفلسطينية لأحد المطلوبين ، إنه الفوكس، الذي لم يُسمع به منذ سنة ، منذ دخلت السلطة الضفة ، ومنذ

إعادة تسمية المناطق ، الف وباء وجيم ، حاصرته في بيت أبيه ، لكنه عرف كيف يهرب من على الأسطح المتلاصقة ، لكن الشرطة الفلسطينية ، عرفت كيف تلاحقه ، هرب إلى (المغراق) نحو(البخشة) هاهو يُحاصَرُ لأول مرة من قبل السلطة الفلسطينية، انه يعرف ما معنى تقسيمات الحروف الأبجدية، يعني أن شيلّو محرمة على شرطة السلطة، إذن سوف يهرب إلى شيلّو، سيجد الملجأ الآمن هناك، لن يتبعه هؤلاء الشرطة، وهكذا ظل هاربا نحو شيلّو، عبر الطريق السلطاني نحو المنطقة الآمنة، إنهم بلا شك يعرفونه، ويعرفون أنهم الحامون له، ظل منطلقا دون تهيب، لا يلتفت يمنة أو يسرة، لكن الشرطة توقفت عند حدود منطقتها، وتركته ممعنا في الهرب، ينظرون إليه كما لو أُفلت منهم، وقد خذلتهم قواهم وحيلتهم، تجادلوا فيما ينوون فعله، أيتركونه لفرصة أخرى، أم يتصلون بلجنة التنسيق ليسلمونه لهم، لكن طلقات نارية تصدر من بنادق الحرس في شيلّو، لم تكن كثيفة ولا قوية، ربما من سلاح صغير.

هرول كثير من الناس نحو(جورة الببور) واصطفوا على الطريق السلطاني ، حيث الشرطة الفلسطينية، تترقب وتنتظر، وربما توقن أن حرس المستوطنه هم الذين أطلقوا النار، والناس تظن أن شرطة السلطة هي التي قتلته، لكنها ظنون لم تجد قالبها التعبيري، ينظرون إليهم باتهام، فلا يجدر بسلطة وطنية أن تقتل مواطنيها، كان الجو متوترا، حتى أقبل أربعة يجرون (فوكس) ويلقونه على الطريق السلطاني، يهرع إليه الجميع ليروا طلقات أربعا في صدره

الرفـــيد

(الرفيد) تلك المساحة التي تحد شيلوا من الشمال ، ولا يفصلها عنها - كما كل الجهات - معلمٌ فارق ، إنما هي امتداد طبيعي لـ (ظهرة راس الدير) التي صادرتها إسرائيل لتكون مستوطنة شيلّو ، لذلك فإن المستوطنين في شيلّو ، لا ينفكون يطمحون للاستيلاء عليه، فهناك من يبحث في التوراة عن

اسم قريب من لفظ (الرفيد) كي يكون مبرراً توراتياً تقدمه شاس وتقبله (الليكود) و(كاديما) كذريعة مبتذلة ، وكإمعان في تدليل المستوطنين .

ها هم قطعان المستوطنين يجوسون الأراضي المجاورة ، يغلقون الطرق كنوع من العبث الذي لا مبرر له ، يمنحون أصحاب الأراضي إذناً للدخول والخروج ، محدد بالساعات والدقائق ، ومشروط أيضاً بعدد الأفراد وعدد الحيوانات، يفتشون في زوّادة الطعام ، يتفحصون الخبز والزعتر والجبن والبصل والخيار، الملفوف بالقماش على شكل صرة ، والماء المالئ لأباريق الفخار أو البلاستيك .

في شيلّو يغضّون النظر عن هذه التحرشات التي أدمن عليها السناجلة والترامسة والقراوتة، وأصبحوا يتعاملون معها كواقع لا بد منه، كما يدمن المرضى على أوجاعهم الدائمة، كواحدة من ضريبة الحياة التي ارتضوا بها، فهم يلوذون بالممرات الخفية وطرق الرِجْلِ التي لا تتسع إلا لموطئ القدم، ويأخذون معهم بعض الكلاب التي تستكشف وجود المستوطنين العشوائي وتفتدي نفسها حين تهاجمهم، وكأنها صارت تميزهم، وتعرف شرعيتهم، وتذود عن حيزها المكاني.

والمستوطنون أحبوا هذه اللعبة السمجة، أصبح أفضلهم المجانين الذين لا تستقيم عقولهم على منهج، يأتون بالأفكار التي لا تخطر على بال ، ليرو ما تتفتق عنه قريحة الفلسطينيين من ردود، إنهم يلقون لغزا لا جواب له، لكنهم يتفاجَؤون بردٍ لا يتوقعونه، كأنهم إزاء مآزق بهلوانية، وتصرفات تلقائية مبدعة. أو أنهم في مسرح تدربوا فيه على الإجابة اللبقة .

ليس هذا فقط ما اكتشفه المستوطنون هنا، ففي هذا المكان، رأوا مجتمعا زراعيا وفلاحين غير الذي شاهدوه في الأفلام الروسية التقليدية، فلاحون أذلاء في أراضي الإقطاعي، يعملون ببؤس، وينتظرون الفرج الذي يأتي مع الثورة الاشتراكية، إن السناجلة والترامسة لشيء آخر تماما، إنهم يأتون في الصباح الباكر، يأكلون وهم بمشون، يغذّون الخطى، لا وقت لديهم يضيّعونه، والندى قد رطب سيقان القمح والشعير، فيجعلها هينة على أيدي النساء ومناجل الرجال، يغنّون أغانٍ شجية، كأنها من موجبات الحصاد، لا آلات زراعية إلا تلك التقليدية، ليسوا كفلاحي العهد القيصري، الذي يؤديه كمبارس من سكان المدن الذين لا يعرفون الزراعة في موسكو.

لاحظ فلاسفة الاستيطان ومنظّروها من علماء النفس والاجتماع ، ظاهرة الإعجاب التي اتسعت بين المستوطنين القادمين من المدن الكبيرة، حيث لا فلاحين، ذلك أنهم لم يخفوا إعجابهم بهذا المناخ وهذه البيئة الحالمة، التي غرستها في أرواحهم القصص التوراتية من مزامير داود

وأناشيد سليمان، إنهم يشعرون وهم يرونها أنهم يقرأون التوراة، وان الطبيعة والمكان لم يتغيرا منذ ألفي سنة، وهذا جعل الانسجام عاليا بين المستوطنين والبشر المجاورين، وهذا يمكن أن يتحول في الوجدان إلى حب العرب أيضاً، إنه لأمر خطير، هذه الرؤى المستقبلية .

لذلك تداعوا للتحذير من الاتجاه نحو التناغم مع العرب، فأصدروا الأوامر للشباب بان يوقفوا اندفاع عواطفهم ، فلا يمكن أن تقاتل عدوك وأنت تحبه، إنك تُثلِمُ سيفك، لا بد أن تكره عدوك، أن تقنع نفسك بأنه سيء ، أن تختلق مبررا للعداء ، أن تتدرب على عدائه ، أن توغل في استفزازه ، وإن أصبحت تحبه، انهار مبرر وجودكم في المستوطنات. وقالوا آمين .

أوقفوا الحصّادين الذاهبين إلى (الرفيد)، أوقفوهم، فتشوا زوّاداتَهُم من الأكل والماء، هل يُتلِفون الأكل ؟ لا .. إنهم يحتملون الجوع ، ولكنهم أقل قدرة على احتمال العطش، إذاً فليكسروا إبريق الماء الفخاري والشَّربة أيضا ، لم تكن ردة فعلهم غاضبة، فلماذا لا ينزعج هؤلاء ؟ هل يمكن احتمال الحصاد المنهك دون ماء، تركوهم لطريقهم نحو (الرفيد)، ليرو كم ساعة سيمضون في عملهم، وكم يحتملون العطش؟

ذهبوا عنهم إلى ربوة يرونهم بالعين المجردة أو بالمناظير، كان الندى طاغيا، يبرد جهدهم وينعشه، ما احتاجوا إلى ماء، ولا فترة استراحة، حتى بدت الشمس تبخر الندى وتقشِّع عنهم الرطوبة، توقفوا عن الحصاد، وذهبوا للأكل وذهب أحدهم إلى البئر فتح بابها المقفل، ودلى بها ركوة من الكاوتشوك الأسود، ونشل هذا الدلو، شرب وأفرغه في إناء، واخذه إلى مجلس الطعام، كان منظرا لم يألفه معظمهم، استمتعوا به رغم الحظر المفوض على عواطفهم.

لا بد إذاً من حركة استفزازية وموضوع نكد، توجهوا نحوهم وقد همّوا بمواصلة الحصاد، توجسوا سوءا وهم يرونهم يمرون على البئر يعاينون هذا الشيء، إنها ليست ينبوعاً أو بئراً ارتوازية، إنها حفرة على شكل إجّاصة لا يدرون متى حفرت وأعدت لحفظ مياه الأمطار، لها باب صغير يتسع لدلو يُنتشَلُ منه ، مغلق بباب حديدي موصد بقفل ، كي لا يفتحه ألغرباء ، حاولوا فتحه ليروا ما بداخله، فما استطاعوا، تجاوزوا هذه الرغبة الطارئة، وظلوا متجهين إليهم بمشية عدائية، وقف الحصّادون استعدا لهذا الهجوم الذي يخفي ما وراءه، أما المستوطنون فقد توقفوا والسلاح في أيديهم وقال أحدهم بلغة قريبة من العربية:

- من سمح لكم بحصد الشعير ؟
- لسنا بحاجة لإذن كي نحصد زرعنا.

- وهل معكم سند تسجيل الأرض؟
- وهل الأرض كالسيارة، يلزم أن نحمل رخصتها؟
- ولكنها هذه أرضنا، وهبنا إياها الرب.
- وهل أعطاكم الرب سند التسجيل ؟

قال الذي حاول أن يفتح البئر:

أعطنا مفتاح البئر إذاً ..!!

- قل للرب أن يعطك المفتاح

تقـــــارب

هي الصدفة المحضة التي جعلت السنجلاوي كامل حسن وجها لوجه مع المستوطن ناثان، فناثان كان قادما بسيارته مسرعا من شيلّو، وكامل حسن كان خارجا من قطعة أرض لعائلته، التي يحاول المستوطنون ضمها إلى شيللو، كاد أن يتصادما في حادث مروع عند دخولهما على الطريق السلطاني، لولا تداركٌ يقظٌ، أنقذ المركبتين والسائقين من إصابات بليغة، توقف كل منهما في الشِبر الأخير، ونزلا من السيارة، يهنئ كل منهما الآخر على السلامة، أو يعتذر عن خطأ أفلت منه.

لم تكن المقابلة حارة من قبل الصحفي كامل حسن، وما كانت أيضا من قبل ناثان، بل كما تقتضي اللياقة المألوفة، لولا إمعانٌ من ناثان في النظر لقسمات وجه كامل، وهو يتذكر هذا الوجه المألوف، إذ سأله بلغة عربية هزيلة مخلوطة بالانكليزية، هل سبق وأن تقابلنا؟ لكن كاملاً الذي اعتاد على هذه المواقف وهذا التساؤل ، قال له :

- أنا إعلامي ،أظهر كثيراً على شاشة التلفزيون.

هذا التعريف الذي دأب على تقديم نفسه به، حينما تختلط الذاكرة في مثل هذه المقابلات، لكنّ ناثان راح يتذكر تلك الندوة التي رآه فيها يتكلم بإنكليزية متقنة، في موضوع السلام، لا يتذكر ما قاله من كلمات وعبارات، إنما استمع منه إلى فكرة السلام الممكنة بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي، أعجبته وراقت له هذه الرؤية، راح يقلبها، وينسج منها مشروعه الذي امعن في نفصيلاته، يداعب مخيلته كما لم تداعبه فكرة أخرى، ويتمنى لو يناقش معه بما سمعه منه.

قال له بودّ وإعجاب.

- ألم تكن قبل أسبوع على شاشة التلفزيون؟
- نعم ، استضافتني قناة أجنبية.
- لقد كانت أفكارك رائعة ؟
- أشكرك على هذا الاهتمام.
- جعلتني أفكر بمفهوم السلام بين الشعبين اليهودي والفلسطيني
- شئ جميل أني أوصلت لك فكرتي، واستقرت بوجدانك، وجعلتك تفكر بها.

لم يكن الوقت والمكان مناسبين لإقامة حوار فكري أطول، فكلاهما على عجلة من أمره، تواعدا على لقاء يكون كلاهما مستعدا للمناقشة، ومضى كل إلى وجهته.

كان اللقاء مفاجئا كما هو الحادث الذي لم يقع مفاجئا، فناثان ما انفك يفكر بهذه المصادفة التي ينبغي استغلالها، فمنذ أن وطئت قدماه هذه الأرض قادما من جنوب إفريقيا، وهو يحمل في رأسه معضلة التمييز العنصري، التي أثقلت ضميره وجعلته يهرب من ذاك المجتمع الذي يكبل بعضه بعضا، جاء قبل أن يخرج مانديلا من سجنه، وقبل أن تصبح ضاحية سويتو مطلعا لشمس الحرية، ومغيبا لظلام العبودية والتفرقة العنصرية.

ناثان الذي يرى نفسه ليبرالياً تقدميا، يرفض مبدأ العنصرية من حيث أنه لا إنساني، لكنه كان عاجزا عن فك التشابكات الفكرية والعقائدية التي أفرزتها مفاهيم الاستعمار وقيم الاستعلاء التي يتيه بها الرجل الأبيض، التي تزدري فطرية المفاهيم وبدائية التفكير، وبراءة الإنسان البدائي، مما لا تجعل التفاهم ممكنا في هذا المجتمع المكون من لونين لا ثالث بينهما، لكنه لم يشهد التحول الذي قوض هذا النظام واجبره على قبول التعدد.

الفكرة ذاتها لم تبرح مخيلة كامل حسن، فهو مسرور إذ وجد من يتفهم فكرة السلام في هذا المجتمع الإسرائيلي المغلق النابذ للغير، وهذا في حد ذاته اختراق في جدار الفصل العنصري الذي يتمترس خلفه اليهود، لا بد أولا

أن نستل منهم فكرة الشعب المختار، والتطابق غير المنطقي بين بني إسرائيل كقبيلة من القبائل العربية والدين اليهودي الذي يعتنقه سود وبيض وحمر صفر، فما كل يهودي هو من بني سرائيل، ولا هناك ما يشير أو يميز بني إسرائيل عن غيرهم من البشر، إنهم يغيّبون الوعي، ويشهرون المقدس من القول كي يعرقلون الوصول للحقيقة.

في مقهى فاخر في مدينة القدس، اجتمع الاثنان، كما يجتمع النخبة من المفكرين، وقد تركوا خلفهم ضغائنهم ومعتقداتهم وعواطفهم، واتخذوا الحيادية منطلقا كما تقتضي المناقشة الحضارية.

قال ناثان وهو يحتسي قهوته:

- لقد شكلت في ذهني مفهوما قائما على رؤية واقعية، فعلينا أن نبني جسر التواصل على ما هو مشترك بين الشعبين، وحينما نعدد ما هو مشترك، نراه أكثر مما هو بين شعبين متخاصمين، والخصام دائما ينشأ عندما ينعدم التفاهم وطريق الحوار.

كانت مقدمة منطقية رآها كامل حسن مدخلا معقولا للنقاش، فقال له أكمل، فقال:

- أولا أن عقائدنا الدينية قريبة أو متطابقة أو متكاملة، فكلانا يحرم أكل لحم الخنزير وشرب الكحول، وما هو حلال عندنا هو حلال عندكم، وأصول الذبح هي ذاتها، نقدس نفس الأنبياء إبراهيم وإسحق وإسرائيل ويوسف وزكريا ، ومبدأ العقوبات والحدود المفروضة على الآثام، كالرجم والجلد وقطع اليد ،نحترم الزواج ولا نمس المرأة، ونفرض عليها الاحتشام والعفة، بل أن لغتينا لهما نفس الأصول المشتركة للألفاظ والأسماء وبناء الجملة والأعداد.

يستطيع كامل أن يعدد المزيد من الإسرائيليات التي يعج بها فقهنا الإسلامي، فقاطعه قائلا :

- إن اختلافنا ليس دينيا .
- ولكننا بناء على هذا المشترك نستطيع أن نبني فقها دينيا جديدا، ينصهر فيه الشعبان .

قال كامل ساخرا :

- لعلك قرأت تومس مور جيدا وأصبحت أسيراً لليوتوبيا .

لست خياليا كما تظن، ذلك ان كل فكرة جديدة تكون مجهولة، وبالتالي غير مقبولة، ولكن واقعيا يمكننا أن نبني معبدا مشتركا لهذه الديانة الجديدة، ندعو لها المؤمنين من شيلوا ومن جاورها من البلدان، ثم نكرر التجربة في مكان آخر، لكي نصل في النهاية إلى شعب متجانس ومنسجم في عقائده.

- وأين ستبني هذا المعبد ؟
- في الموقع الذي كدنا أن نتصادم به.
- لكن الموقع هو قطعة أرض لعائلتي أنا، وليست منذورة لمشاريع وهمية .

أراد ناثان أن يرد، ويقنعه بان مشروع السلام أثمن كثيرا من قطعة أرض

لكن كامل قاطعه :-

- حينما تتخلص من ذهنية المصادرة والاغتصاب، وأن غيرك هو الذي سيدفع الثمن، ستكون مقنعا لغيرك ومتفهما له.

روبيـــن

إنه روبين موسى روبين ، ترمسعاوي أبا عن جد، ضاق باسمه كثيراً، ولام أبوه على هذا الاسم الذي أفاق عليه وهو لا يعرف له معنى سوى أنه اسم نبي من أنبياء بني إسرائيل، وأن أباه قد أسماه على اسم جده الذي ولد أثناء موسم النبي روبين في بيت دجن، فأسمته أمه روبين، حينما كان اليهود مواطنين لا مستوطنين .

ضاقت به الحياة حتى ما عاد يستقر في ترمسعيا ، كتوما منضويا لا يعرف أحد ماذا يعمل أو كيف يكسب رزقه.

أما مدير مكتب الشين بيت في شيلو، فهو حائر هذا الصباح حيث بدأ يعتقد أن روبين عميلاً مزدوجاً، زرعته المخابرات الفلسطينية في جهاز الشين بيت، كيف حدث ذلك ؟ إنه لا يدري، هل تتكرر أسطورة رأفت الهجان ؟ لا يدري، فمن جنده في الشين بيت إذاً؟ انه لأمر غامض، ولكنه موقن أنه قد أحبه ووثق به كل هذا الوقت، وأن كثيراً من تقاريره كانت صادقة .

إن صدقت توجساته فهي فضيحة مدوية إذن، وليس من الحكمة الانتظار حتى ينفذ مأرباً للسلطة الفلسطبنية، التعليمات تحذرك من أن تثق بالعميل الفلسطيني، ولكن هذا ما حدث، وهناك أكثر من إشارة وشبهة تدعوك للشك بإخلاصه، آخرها بعض التسريبات التي أفادت بأن اختراقا قد حصل لمؤسسة الشين بيت، إذن لا بد أن يكون هو، فماذا تنتظر،لا بد من تصفيته، ولكن قرارا مثل هذا لا يمكن التكهن بعواقبه إنه ليس مجرد موظفٍ يجدر طرده، فكيف استطاع هذا الروبين خداعه، وكيف أشعره انه يكره أولئك الذين ينبذونه لاسمه الشاذ، وأنه يتبرأ من مجتمعه حينما يلبس غير ملابسهم حتى كاد أن يلبس طاقية المتدينين اليهود.

ماذا سيقول لرئيس الشين بيت حين يتم اكتشافه؟ سوف يلقي اللوم عليه، ويتهمه بالتقصير والغباء، وهو يعد نفسه لمنصب سياسي بعد التقاعد، فماذا يفعل كي يقي نفسه هذه التحقيقات؟ يستطيع سجنه ولكن هذا يؤكد تقصيره وعدم اكتشافه المبكر له، هو الذي يعتد بذكائه وفراسته وحدسه، يستطيع قتله وتصفيته، ويمكن تبرير قتله بسهولة، لكن مقتله يلوث سمعته، ولا يدري من سيستعمل هذه القضية ضده في معاركه السياسية المقبلة.

إذن لا بد من تصفيته، ولا بد أن يقتله فلسطيني مثله، هكذا تبادر لذهنه وطابت له الفكرة، لكن هذا يعني أن المخابرات الفلسطينية اكتشفته عميلا وقامت بتصفيته، لا... هذا يعني أن إدارته للعملاء سيئة، وهي نقطة ستسجل بملفه في نهاية الأمر، إذن من سيقتله، هل ستداهمه سيارة؟ إنها عملية غير مأمونة، ولن يتحكم في خيوطها.

شرب فنجانه العاشر وهو يفكر بالأسلوب الأمثل لتصفية، فجأة قفز إلي ذهنه المستعربون الذين يطلقونهم في القرى، وفي المدن، يتكلمون العربية ويصلون في المساجد ويعملون أعمالا هامشية، تمكنهم من تصيد المطلوبين من النشطاء السياسيين، واعتقالهم أو تحديد موقعهم.

نهض بكل نشاط إلى الهاتف ليتصل مع مسئول وحدة المستعربين، كي ينتقي له عنصراً، وما أسرع أن حضر المستعرب، انتحى به خلف باب مغلق، يهمس له عن مهمته السرية جداً، يتكلم له عن روبين، وعليه أن يتابعه، فلعله يريد أن يغتال رئيس الوزراء، الذي سيزور مستوطنة شيلو غداً، وأن يطلق الرصاص الصامت اثر كل شبهة يراها عليه،أعطاه كاتم الصوت الذي يخرج الطلقة كبصقةٍ بلا ضجيج، لا يكاد أحد أن يسمعها، وما عليه إلا أن يتعرف على روبين، من الصور التي زوده بها، وطلب منه أن يتمعّنها مليا، كي ترسخ معالم سحنته في ذهنه، وأوضح له أن عدم إستدعاءه ليراه رأي العين، ما كان إلا تحرزا من أن يستشعر بذكائه ما هو مدبر له.

في الاحتفال الذي أُعِدَّ لاستقبال رئيس الوزراء، كان روبين بين أولئك الذين يجوبون الساحات والأكناف باحثين عن متربصين برئيس الوزراء، وكان مستعربٌ يبحث عنه، يقارن الوجوه بالصورة التي يحملها، ويأمل أن يطلق عليه النار حينما يدخل إسحق رابين.

كان الاحتفال مهيبا يليق برئيسٍ للوزراء، وكل شيء معدٌّ تماما إلا أن رئيس الوزراء لم يأت في موعده، المستقبلون من أعيان شيلو وببيت إيل ومعالوت مستعدون بقيافاتهم المهيبة، كل يستعد لدوره في هذه الاحتفالية الرسمية، كرد اعتبار للمستوطنين الذين سيكونون تحت إدارة السلطة،

وكان المستعرب يبحث عن روبين، ولا يفتأ أن ينظر للصور التي حملها، ويتفقد الوجوه ويقارن، وروبين يتابعه أيضا، فهو غريب، وعليه أن يترصده.

ومضى الوقت المقرر لوصول رابين لكنه لم يأت ولم يبلغ أحداً عن سبب هذا التأخير، فماذا لو جاء رئيس الوزراء وقام هذا الروبين باغتياله، سيتحمل مسئولية الإهمال وربما التواطؤ، أصابته حمى البحث عن روبين، لا بد أن يجده ويقتله قبل أن يقتل رئيس الوزراء، أو بحجة محاولة قتل رئيس الوزراء، ها هو بعد ساعات ثلاث، يأتي إسحاق رابين بطائرة هليوكبتر، والمستعرب كاد أن يظفر بروبين المفترض، أما روبين الحقيقي فيتابعه وهو يتابع شخصاً آخر، هنا أدرك أنه ما كان عليه أن يقبل هذه المهمة، إنه لا يعرف سكان شيلّو ولا يميزهم عن الغرباء.

الغيت فقرات الحفل، فرئيس الوزراء مرتبط بموعد آخر في تل أبيب ، نزل وحيّا المستقبلين، وألقى بهم خطبة قصيرة، عن السلام الذي حان موعده، والحروب التي يجب أن تنتهي، ثم مشى يلملم أطراف جاكيته الذي يعصف به هدير الطائرة ودوامة ريحها، صعد الطائرة وكان هناك من يركض ليرى رابين قبل مغادرته، لفت نظر المستعرب الذي أعياه إيجاد رابين، أسرع إليه شاهرا مسدسه المزود بكاتم الصوت، أطلق عليه النار ولم يره أو يسمعه أحد .

غادرت الطائرة وهدأ الضجيج ، فأسفر عن قتيل لا أحد يعرف قاتله، هرع مدير مركز الشين بيت، يتفقد القتيل، لم يجده روبين، بل وجد روبين ممسكا بالمستعرب، كتم انفعالاته متفاجئا بما يرى، وربما حمد الله على هذه النتيجة التي لم يقتل بها رئيس الوزراء في شيلّو.

لم يستطع الصحفيون أن ينقلوا خبراً متماسكاً، فهل كان ركض المستوطن هذا كان مريباً، وأن قتله كان خطأً غير مقصود، أو أن هناك من كان يريد تصفيه رئيس الوزراء، لم يشأ أحد أن يعطي للحادث بعداً سياسيا، لكنهم في المساء علموا أن إسحق رابين قتله عامير في مهرجان في تل أبيب.

ورطة أوباما

(روبرت كيل) صحفي أمريكي جاء بقلمه إلى إسرائيل، وحيداً كي يكتب حقائق لا يعلمها الكثيرون، فمصداقيته التي اشتهر بها، لا بد لها من تعزيز لا يعتمد على تحليلات قد تخطئ أو تصيب، إنما على واقع لا يعتمد على تصوّر، إنما على كمرة تصوير لم تتعلم فن التزوير، حمل كمرته الشخصية الصغير وآلة التسجيل الحديثة للبث المباشر صوتا وصورة ، والمعدة مسبقا للبت الذكي لمكتبه في نيويورك وأصدقائه الصحفيين والسياسيين، لم يسافر كمبعوث صحفي إنما كسائح يريد أن يرى بعينه ويسمع بإذنه، بعيداً عن متعهدي الإجابات، لذلك لم يضع برنامجة المسبق ولا رسم خطته، ولم يُحِط وزارة الإعلام الإسرائيلية ولا الصحافة علما بزيارته، ولا تم الحجز له في فنادق الدرجة الأولى.

كمحقق صحفي محترف يعتز بنفسه، لم يتصل بأصدقائه الصحفيين الإسرائيليين ليستشيرهم أو يستعين بهم، إنما انطلق راكبا إلى القدس، علـه يستطيع أن يقرأ على ووجوه العرب الفلسطينيين ما لم يقراه غيره، فالقدس تجمع الإسلاميين المتشددين وغير المتشددين، سيمعن في تفرس الوجوه والحركات واللباس، لعله يضيف موضوعاً جديدا للغة الجسم، طاف في شوارعها القديمة والجديدة فلم يستطع أن يلتقط فكرة يبني عليها نظريته المأمولة، مضى إلى حاجز قلندية، واجتازه وهو ممعن بالوجوه تفرسا وفي أنواع الملابس القادمة من التاريخ، وقصّات اللحى لليهود المتدينين والإسلاميين، وأنواع الطواقي وألبسة الرأس، اجتاز حاجز قلندية الذي يشبه المشط، يعد الداخلين والخارجين واحداً واحداً إلى رام الله ، راكباً سيارة أجرة، أدهشه هذا الحراك البشري، هذا السباق الجميل نحو العمران، رغم عشوائية البناء العربي وحداثة المستوطنات، وكأن المنطقة لا تأبه بالحروب، ولا يكترثون بالمستقبل، فربما يكون هذا هو السبب في إفراز الإرهاب المقدس الذي ينمو لدى الفلسطينيين، لعلها عتبة الفهم الذي سيقودنا إلى فلسفة الإرهاب.

هذه الفكرة التي راحت تتوسع في ذهنة، بحاجة إلى رقود كي ينموا جنينها ويتشكل، جلس في مقهى، وراح يكلم صديقا له في نيويورك حول هذه النقطة، أي خدر يعيشه هذا الشعب؟ أي لامبالاة وأي يأس من الحياة قاد

هذا الشعب إلى انتحار مقدس؟ إلى قتال نما فيهم من أجيال ثلاثة أو أربعة ؟ حتى غدا شعورا بعدم الانتماء البشري .

انفتحت أفكاره في هذا الاتجاه، فكيف لهذا الشعب المعن بالغضب أن يلتفت لهذه الطبيعة الخلابة النشطة، طاف في رام الله صباحاً، استقل سيارة أجرة، طلب من السائق الذي يحسن الانجليزية أن يذهب به لمستوطنة ما، كان هذا السائق ترمسعاويا، فاقترح عليه أن يذهب به إلى شيلّو، فهو يعرف كيف يتفادى مصائد المستوطنين، ويتقي شرهم، ويريد العودة ليطفئ قلقه على أمه المريضة في ترمسعيا.

في الكرسي الخلفي استرخى روبرت سروراً واخرج جهازه الحديث جدا للنقل المباشر، فتحه على أكثر من مُستَقبِل؛ سكرتيرته في مكتبه وجريدة نيويورك تايمز والهيرالد تربيون ، وخمسة من الأصدقاء واحد منهم سيناتور يرافق الرئيس أوباما في افتتاح مؤتمر الإيباك،غمرته شاعرية المكان فراح يصف المستوطنات، أسهب في وصف الطريق الذاهب إلى مستوطنة شيلّو، لكنْ ... كأنه تذكر فجأة أو قام بتذكيره أحد، إذ قطع الكلام، وسأل السائق، أين عيون الحرمية ، فقال بالعربية (آه يا أبن الحرمية ، ما بتنسوا قتلاكم) لكنه أردف بالإنكليزية (هساع بنمر عليها، بتحب تحط باقة ورد على أرواح الأربعة وعشرين إللي ماتوا)

تمهل السائق وهو يمر بمخفر عيون الحرمية، لعله هذا السائح يتألم قليلا، لم يعلق أو يتكلم وتابع الطريق، فاجتاز سهل التل إلى شوريا فباب الواد، وانتحى شرقا إلى ترمسعيا، مَخَرَها وكان الجو ربيعيا رائقا، وروبرت ممعن في وصف شاعري لما يراه، فجأة.... خرج اثنان من المستوطنين، تفاجأ روبرت، باللحى غير المشذبة، صرخ بعفوية إرهابيين، وأطلق المستوطنان الرصاص، انفجر دماغ السائق واصطدمت السيارة بجدار فصرخ : قتل السائق، لكن زخة أخرى أصابت روبرت بكتفه وأصيب الجهاز برصاصة أخرى وأتلفته.

سمعت سكرتيرته في نيويورك استغاثته وكلمة إرهابيين وصوت الاصطدام بالجدار ومقتل السائق وإطلاق الرصاص وكذلك صديقه السناتور الذي كان ينتظر دوره للكلام في المؤتمر.

صعد السيناتور، وكان قد اعد جهازه، ليعيد أخر دقيقة استمع إليها من روبرت قبل انقطاع البث، دنا به من المايكرفون، كي تسمع القاعة ذعر روبرت وصراخه؛ إرهابيين ، وصوت الصدم وإطلاق النار وانقطاع البث

كانت مفاجأة مثيرة للحضور، ونتنياهوا الذي هب ينعي الصحفي الكبير وسائقه، ويحمل السلطة الفلسطينية المسؤولية وتبعات الجريمة ويدعو العالم لوقف هذه الإرهاب.

كانت فورة من الحزن العاطفي، لم يترك لأحد أن يسأل نتنياهو عن تصديقه لما سمع، ألا يكون تسجيلا مفبركا؟ حتى أن موجة العاطفة اجتاحت أوباما أيضا حين صعد المنبر، فلم يسعه إلا أن يردد شتائم نتنياهو وإدانته للإرهاب الفلسطيني، ومواساته لأهل الضحايا، وضرورة اجتثاث هذا الوباء البشري .

ولم تكن الضجة في الفضائيات أقل أوارا منها في اجتماعات الأيباك، كل الفضائيات أسرعت لنشر هذه اللقطة العاصفة، وبعضها الذي راح يستوضح إن كانت حماس قد تبنت العملية أم غيرها، وهل أمسكت الشرطة الإسرائيلية بالإرهابي، وهل توفي روبرت كيل، وطلبوا صوراً للحادث، وتفاصيل عن السائق الذي ظنوه إسرائيلياً، ولما علموا انه ترمسعاوي خفت سعيهم المهووس وراء الخبر، وتحولوا يسألون عن روبرت كيل، الذي أكد لهم أن القتلة اثنان من مستوطنة شيلو، فتوقفت أقلامهم، لكنهم ذهبوا لمستوطنة إيل كي يعرفوا القصة، لكن المتحدث الإعلامي باسم الجيش احتار في قضية لا يستطيع أن يكون معها صادقا، ما دامت تخدم أهدافه الإعلامية .

أوباما كان أكثر المتورطين إحراجا، فلم يستطع المكتب الإعلامي للبيت الأبيض أن يرد على الصحفيين، ويفسر ترديده لما قاله نتنياهو، وكيف وقع منوما تحت سلطة تأثيره، وكيف صرح بقول لم يتأكد منه، و لم يرجع لمستشاريه الصحفيين، لكن اختفاءه عن المواجهة كان تأكيداً لكل ما يدور في رؤوس الصحفيين، لذلك طالب كثير من الكتاب استقالة رئيس أقوى دولة في العالم ، يمكن أن يكون منوما في حضرة نتنياهو .

أحد الساخرين الأمريكيين قال: جاء اليوم الذي وقف الرئيس دون أن يدري لينعي قتلى الإرهاب الإسرائيلي من على منبر الإيباك .

أشير فايز جان [1]

[1] وقعت أحداث هذه المجزرة يوم 17/8/ 2005 ، لذلك فإن أسماء الأماكن والشخصيات حقيقية ، ولم أضف شيئا غير ما تقتضي فنيات القصة القصيرة

من جاء بك يا(أشير فايز جان) كي تفعل فعلتك في شيلو، جئت تعمل هنا بعد أن اختمرت في ذهنك تعاليم غوش أمونيم، عن قدسية هذا المكان، الذي لا يساويه سحرا توراتيا إلا مدينة القدس، فها أنت في حلم توراتي، لا تريد لأحد أن ينزعك منه .

ولكن ما بال هذا المأفون شارون الذي يخلي المستوطنات في غزة، ولا يأبه لاحتجاج المحتجين والمعارضين، كيف لأحد أن يتخلى عن أرض إسرائيل، إنها الخيانة العظمى، إنه التنازل عن أرض الميعاد؟ إنها بداية التراجع واختلال الثبات على الأرض، فإن أصبح هذا الشارون مخبولا فلا بد أن يصحو على صدمة تنبهه من غفلته .

(أشير) إنك بقدر ما تحرص على التقاط الإشارات التوراتية الدالة على هذا المواقع المحيطة بشيلو، فأنت لا تكلف نفسك عناء البحث عن تاريخ جدك في إيران، بل تتمنى أن تنزع من اسمك كلمة فايز كما استطعت أن تغير اسمك من أشير إلى (أستر) اسم توراتي بمعنى السفر ,أنك لست متدينا وعقلك البسيط لا يقوى على فتاوى التلمود وجغرافيا التوراة ، فكل الذين يداومون على قراءة التوراة بطقوسها المتوارثة لا يزدادون عاطفة أكثر من مخزون عاطفتك لأرض الميعاد وارض بني إسرائيل .

ها أنت تأتي من مستوطنة شفوت راحيل ، تعمل عملا بسيطا، عاملا في مجال ألمنيوم البناء ، تقص القضبان وتجمعها مع مجموعة من المهنيين العرب، من قرى قريوت وسنجل وترمسعيا ، لا تكلمهم لأنك لا تجيد العربية ولا تريد أن تتعلمها، لكنهم يكلمونك بالعبرية، رغم أنك تتمنى أن لا يكلمك أحد من هؤلاء العرب، إنك لا تستريح لمخاطبة هؤلاء الأدنى قيمة، إنهم يعرفون فيك هذا الميل، ويعرفون انك غير ميال للإفصاح عن نفسك، لذلك يستمتعون بمناكفتك واستفزازك وإغاظتك، لكنهم لا يعرفون أنك لا تملك الخبرات المعرفية التي تكفيك لنقاش ممتع جذاب، حتى لو لم تعجبك المواضيع المطروحة، لكن تجبر نفسك على بعض المجاملات التي تذيب الجليد وترى في ذهابك إلى سنجل لتجلب بعض العمال الذين يعملون معك في مشغل الألمنيوم، في المجمع الحرفي في شيلوه، نوعا من التواصل، حيث يشتبكون معك في الطريق بمزاح ودعابات تستريح لها، وقد لا تستريح، لأنك تعرف أنهم مرغمون على العمل في هذا المجمع الحرفي، بأجور اقل من نصف ما يتوجب أن يأخذوه، إن هذا يشعرك بالتميّز عنهم والفوقية عليهم. بل تراهم حمولة زائدة على هذه الأرض، أو كائنات يجب التخلص منها.

ها هي شيلو تربض على منحدر ، يشرف على ترمسعيا وقريوت وسنجل وجالود ، قلعة يحيط بها سور إسمنتي عازل ، يحيط بهضبة تتراكم فوقها شيلو، هضبة تم تشذيب سفحها بقطع عامودي يصعب تسلقه، ها هي شيلوه مصانة بسورين، كإحدى قلاع القرون الوسطى، تشف عن عقلية القراصنة وقلق الخائفين في أعماق النفس الإسرائيلية، أو قلق العداء والخوف من الآخرين، وفي السور باب يفتح أليا تنتصب عليه كمرات ترصد البعيد و القريب والعابر، وهناك غرفة سميكة الجدران يجلس بها ضابط للأمن والحماية، وآخرون يفتشون الداخلين تفتشا يدويا وإشعاعيا، ويدققون في الهويات وتصاريح العمل,

وأنت يا أشير تهرب من الضيق الذي ينتابك من هؤلاء العرب إلى هذا الضابط المتقاعد من الجيش، الذي يجلس في هذه الغرفة المغلقة دوما، اعتاد عليك واعتدت عليه، أصبح يفتح لك الباب ويدخلك عنده، وأصبحت تفضي إليه ويفضي إليك، تتكلمان عن هذا الشارون الذي جاء من بولندا ويريد التخلي عن غزة بما فيها من مستوطنات، إنكما تكتشفان بعضكما وتستشعران بالتقارب في الأفكار والمشاعر، وتناقشان هذه الاحتجاجات المتصاعدة ضد قراره التخلي عن غزة، أو لفت انتباه رئيس الوزراء لموقف المستوطنين من هذا القرار، لقد أصبح البوح بينكما مباحاً وأكثر انفتاحاً، فلماذا لا يرفعون صوتهم عاليا، بقتل الفلسطينيين، انه صراخ سيصل إلى أمريكا، يصل أناسا يستطيعون أن يؤثروا على هذا لشارون.

الأفكار تتبلور في ذهنك يا أشير، أو(استر) كما تريد، وأنت تغرق في المجتمع الفلسطيني تذهب في معظم الأيام لجلب العمال من سنجل وترمسعيا وقريوت ، ، تعبئ العمال في كرفان كبير، وتجيء بهم كالسجناء.

وها هما الأخوان بسام موسى طوافشة وأسامة طوافشة [2]، يخرجان كعادتهما كل صباح استعدادا للعمل في شيلو، يحملان زوادة الأكل التي تعدها أمهما بعد صلاة الفجر، ينتظران على حافة الطريق مجيء الحافلة الإسرائيلية الخاصة. لم يقلقا من تأخير بسيط عن الموعد.

قال فراس

- هل لاحظت نظرات أمك ونبرة صوتها؟
- لم الحظ أمرا مهما، ما أثار انتباهك أنت ؟
- كانت مهتمة بنا أكثر من أي وقت .
- هي هكذا ، دائما مهتمة ، حتى في السياسة هي مهتمة ، تستغرب أن يخرج شارون من غزة

[2]) انظر الصورة التي تجمع الشهيدين بسام وأسامة في آخر الكتاب

- أتراها بشرى الخروج من فلسطين؟

وصلت الآن يا أشير، فلم تمنحهما الاسترسال في الحديث، جئت ومعك القريوتي مروح كساب ، فيركبان كالعادة ويقدمان لك (فراكة بسيسة) صنعتها أمهما لمعة، ترويقة للصباح، وتتذوقها بلسان طفل، لم يتمكنا أن يترجما لك هذا الاسم الصعب .

في الطريق وأنت تعبر الشارع السلطاني إلى ترمسعيا تجد محمد منصور قادما من كفر قليل وخليل ولويل قادما من قلقيلية وعاطف من بديا ينتظرونك على الطريق السلطاني، يعرفونك وتعرفهم ، يصعدون مع الثلاثة ،وتصل بهم المستوطنة ، تأخذ هوياتهم وتصريح الدخول والعمل ، تعطها للضابط ليختمها ويحفظها، وتذهب أنت لتأخذ راحة بعد هذا العمل الإضافي إلى غرفة الأمن والحراسة، تشرب عند الضابط شايا وتطعمه من (فراكة البسيسة) وتطلب منه تذوقها، تقترب منه وتهمس إليه :

- ماذا لو قتلت هؤلاء الستة؟
- وهل تقوى على القتل؟
- أقوى ...! فرب الجند يقوّيني
- إذن اقتلهم.
- أريد مساعدتك
- وأي مساعدة ؟
- أريد سلاحك الرشاش
- إنها مسؤولية كبيرة
- سأقول إني خطفته منك

سكت ضابط الأمن والحماية وغادَرتَ يا أشير لتمنحه وقتا لتقبل هذه الفكرة المفاجئة، ذهبت إلى عملك العادي ومازلت تفكر بالخطة، كيف تنفذها وكيف تهرب، لم تستقر على شيء، عدت إلى ضابط الأمن والحماية ، كنت في غاية القلق والتوتر، سألك عن هذا الاضطراب، فلم تجد من الكلمات ما توضح به أفكارك المتشابكة .

قلت :

- هل سيكون معي الرب؟
  - طبعا.... ألم تقرأ في سفر أشعيا(تأكلون ثروات الأمم وعلى مجدهم تَتأَمرون)
- لكنه لم يأمرني بقتلهم
- قلَّبَ في صفحات التوراة حتى اهتدى إلى سفر ميخا وقرأ :

- (قومي ودوسي يا ابنة صهيون لأني اجعل قرنك حديدا وأظلافك أجعلها نحاسا، فتسحقين شعوبا كثيرين، وأحرم غنيمتهم للرب، وثروتهم لسيد كل الأرض)
- سيكون الأمر مخففا
- كم سيكون مخففا
- سيعلم العالم انه قد تم القبض عليك، وإنك قد قُدِّمت للمحكمة، وحكم عليك ، إما بالغرامة أو السجن
- كم سيكون سجني
- ستسجن ولكن لا احد يعلم أين ستسجن، أفي البيت أم بمزرعة في النقب.

ها أنت تهدأ قليلا وتطمئن، ها أنت ضمنت رضا الرب ورضا القانون والقضاة، وهاهي الساعة الرابعة تقترب وينهي كل العاملين أعمالهم ويبدلون ملابسهم ويذهبون إلى السيارة وأنت ترقبهم، عاطف ما زال يعمل، لا بأس ، ها هو روحي وأسامة وبسام وخليل تأتيهم وتغلق الباب الخلفي ، تشغل السيارة، وتمضي غير بعيد لبوابة المستوطنة، تنزل لتجلب بطاقاتهم، ولكنك تأخذ الرشاش من الضابط وتمضي، يصرخ بك كأنه لم يتآمر معك ويمكّنك من الإفلات، ومسدسه موضوع أمامه على الطاولة، كأنه ليس للاستعمال، وتفتح باب سيارة الكرفان الخلفي الذي أوصدته عليهم، وتطلق النار .... ها أنت تصيب خليل ولويل إصابة مباشرة وكذلك بسام ، أما روحي فقد تحامل على ما أصابه في فكه وفتح الباب وهرب ، وهرب معه أسامة ، أجهزتَ على الإثنين ولحقت الهاربين بالرشاش ،يلتفت إليك روحي ويستغرب ويصرخ بك : أشير ... لعلك ترتدع ، لكنك أطلقت عليه النار ولم تصبه ، بل أصبت أسامة في ظهره وسقط ، ثم لاذ روحي واختفى عنك ، لكنك رأيت محمد منصور وهو لاه في عمله فأطلقت عليه النار وقتلته .

نفدت ذخيرتك وأنهيت مهمتك، وها هو ضابط الأمن والحماية ما زال ينظر إليك ولم يلحق بك أو يطلق النار عليك، كما يجب أن يكون.

أما رب الجند فإنه أمر جنده كي يمسكوا بك بلطف، ويضعوك في الحجز مكرما، ويسجنوك في غرفة مريحة، ريثما تدفع شركة التأمين عنك ديات قتلاك أو تعويضاتهم، ويكون الرب قد برأك من قتل الغوييم[3]

---

[3] غوييم : لفظة عبرية تعني الأغيار ، أي غير اليهود ، ليست بمعنى الأجانب ، بل مخلوقات أدنى من البشر ، يستحلون قتلهم واستلابهم والسيطرة عليهم .

بيــت فـي يافــا

أكثر ما يحرج عزيز هو أن يَسأله شخصٌ؛ أين تسكن ؟ فلا يدري هل هو في سنجل أم ترمسعيا ، لذلك أنه يتردد خوفا من أن يعتب عليه الترامسة إن انحاز إلى سنجل والعكس أيضاً، لذلك فإنه يقول إنني من باب الواد، أي في المنطقة الفاصلة ما بين سنجل وترمسعيا، وهذا الوفاء الذي يكنه لكلا البلدتين جعلهم يسمون باب الواد، بجورة عزيز، حتى أن (إزايا)المستوطن العجوز في شيلو رغب في الاتصال به والتعرف إليه .

إذن من أين يكون هذا العزيز، انه عزيز بركات من يافا ، لم يهاجر هو وأمه إلى سنجل أو ترمسعيا ، لم يختر مكانَ هجرته حينما هربت به أمهُ من يافا في ربيع عام 48، واستقرت به في عمان، لم يكن يدرك ما يجري وهي تجري به في أكناف الحيطان والأسوار، ينهكه الجري فتحمله ، لكن ما أسرع أن تتوقف لتُكمل نحيبها على زوج تركته قتيلاً مُسجى في حوش البيت، مات وهو يدرأ عدوانَ العصابات اليهودية، فلم يكن أمامها إلا أن تنقذ ابنها وتفرُّ به، هربت ولم تحمل إلا حقيبة يدها، وأساورها، وحينما كانت تنتحب يذهب عزيز إلى الظن بأن أحدا قد ضربها فيسأل عن والده ليحميها فتزداد انتحابا، يغفو على كتفها ويستغرقه النوم في الشاحنة التي استقلتها كيفما اتفق، تتمنى أن تستمر الرحلة إلى الأبد، أو تمضي بها إلى الآخرة، ذلك أنها لم تحلم بمستقبل فيه كل هذا لاقتلاع والتشرد .

لم يكن انضمامه لمنظمة فتح التي تشكلت في الكويت خياراً مزاجياً، اتفق مع توجه بعض الأصدقاء المهندسين والأطباء والمحامين والمفكرين، إنما مجال لينفث منه الاحتقان الذي شحنته به أمَّه، التي لم تكفَّ عن القصِّ الحزين، عن بيتهم في يافا الذي كان تُحفَةً فنيةً، ومعلماً مميزاً في شارع العجمي، حتى ما عادَ يُقال بيتُ بركات قربَ صيدلية صَيْدَح ، بل يقولون صيدلية صيدح قرب فيلا بركات.

المهندس عزيز بركات عادَ إلى فلسطين بعد أربعين عاما من الغياب في الكويت، على جناح اتفاقيات أوسلو، كواحد من الذين تضمنتهم قوائم العائدين، لم يكن يعرف أحداً في الضفة الغربية معرفة أخويّة سوى زميلٍ له من سنجل، رافقه في العودة ، وعرض عليه المكوث في سنجل، اشترى

لـه قطعـة أرض صـغيرة ببـاب الـواد ليبنــي عليهـا بيتـه ويسـتقر فـي سـياق عودته إلى يافا.

وها هو قد استقرّ أخيراً على أرض فلسطين، تذكر تلك الخَربشات التي كان يرسم بها بيتهم في يافا، على وقع أحاديثِ أمهِ الحزينة، بيت سيبنيه على غرار البيت الذي لم يبارح حلمه وذاكرة أمه، قال لأمه سأبني لك البيت الذي طردنا منه اليهود، لم تفرحْ كثيراً وقالت لا يوجد نسخة أخرى عن فلسطين، عرف أن ألمها ما زال غائراً، جعله يقرر الذهابَ إلى يافا لأول مرة، على وقع سياحة القصِّ التي كانت تقوم بها أمه في حي العجمي، واصفة كل شيء في طريقها حيثُ تبدأ رحلتها من المستشفى الفرنسي حتى موقع تلَّة العرقنجي ومحل دولة، وتستمر بالمسير إلى شارع كرم الزيتون وشارع الحلوة فصخرة آدم عند تقاطع محل دولة، ثم تنحرف يمينا حتى صيدلية صيدح ، وبيتهم المقابل لها، يضيق الشارع ثم يستمر باسم شارع الكافور حتى المستشفى البلدي والكرنتينا وحي الجبالية إلى أن يلتقي غربا بشارع الحلوة وكرم الزيتون.

ها هو يحمل خارطة لملم مِزَقِها من أحاديث أمه، فبدت كأنما قد ذاب معظم حبرها، سأل عجائز اليافيّين الذين بقوا جذورا بها، أين صيدلية صيدح وفيلا بركات، دلوه فتمعن الفيلا والموقع، حاول أن يدخل البيت لكن لم يُسمح له، فصوره من الخارج من جهاته كلها ، وصور الحديقة والسور والبوابة والأشجار وحجر التاريخ والأسدين الحجريين وأصص الورد على افريز الفرندة، فوجد أن الزمن لم ينل من جماله ولا هندسته، اخذ الصور وحولها لمخطط معماري ، بنى وفقه بيتا كما هو بيت أبيه في يافا.

وها هو (إزايا) يلح على من يعرفهم من سنجل وترمسعيا كي يقبله عزيزٌ ضيفاً عليه، فهو منذ أن اكتمل هذا البيت، لا يبرح تأمله كلما مرَّ بجانبه، قادماً إلى شيلو أو مغادراً منها، لا يعرف أين رأى مثل هذا البيت، لعله مثل البيت الذي سكنه في يافا، فلا يعجب إذ تعلق به قلبه من أول نظرة، أما السياسي العتيق عزيز، فقد أبى أن يلوث تاريخه الناصع بهذه الزيارة التي لا معنى لها.

ازدادت أمه نحيباً وتذكراً، فالبيت تماماً كما تركته، لا يختلف إلا في عمره الفتي، إلا في رائحة البحر ونسيم هوائه، ودونما مقدمات تقول، هناك سقط أبوك حين هاجمه أربعة، ثلاث نساء وجندي واحد، اشتبك معهم في جدال، لكن الرجل أشهر بوجهه الرشاش الصغير، وأطلق عليه النار من قرب وسقط بلا حراك، بعدها دخلن الثلاثُ البيت، يطلقن الرصاص وأنا

اصرخ وأضمك، وأهرب متوارياً عنهن للخارج، مررت بابيك وهو منكفئ على وجهه، والدم يسيل من تحته...

كان القص مرعباً والحزن ما زالَ اخضرَ، كان يسألها عن القاتل فتقول أعرفه ... أعرفه من بين ألف رجل، لا يمكن لي أن أنساه .

يتمنى عزيز أن لا يكون قد بنى هذا البيت الحلم، إذ جعل الذكريات أكثر قرباً. وجعل صحة الحجة تذوي وتتراجع، تجعل من المحتم عليه أخذها اليوم للمستشفى، تمشي بتؤدة تتكئ يمناها على عصا و تتلمس باليسرى حوافَ الحائط الملتفِّ سوراً حول البيت، وعزيز يسبقها للسيارة و(إزايا) يمر بسيارته، عجوزٌ ينزل منها متوجها نحو عزيز، يسلم عليه ويقول :

- ألا تقبلني ضيفاُ ؟

يتفاجأ به ويتذكر أن مستوطنا طلب زيارته ،قال له :

- من أ نت ؟
- أنا (إزايا) .

نظر إليه وقال:

- هل هناك زيارات بيننا .

فرد (إزايا) و كأنه متوقع لمثل هذا الموقف.

- علينا أن نختلق الزيارات.

هز رأسه وقال

- إنها فكرة سياحية.

وأخيراً وصلت أم عزيز، تحاول اجتياز عتبة البوابةِ بصعوبة، هرع إليها يمسكها ليوصلها باب السيارة المفتوح، نظرت إلى العجوز الغريب الواقف يتأمل تفاصيل البيت، وحينما قال بالإنكليزية كأنه يهمس لنفسه (إنه تماما كالبيت الذي سكنته بيافا) لم تقتحم جملته سمعهما، لكن أم عزيز سألت ابنها مستفسرة عن هذا الواقف، قال لها مستوطن يمر بالطريق، أعادت التحديق به مرة أخرى فصرخت، إنه هو، إنه قاتل أبيك، وسقطت على الأرض، حملها إلى السيارة وهو لا يعلم أن كانت حية أم ميتة، لكنه قال وهو يغلق باب السيارة عليها.

هل جئت تسكن شيلو لتقتلني، أم جئت لتمكنني من قتلك ؟

محاكمة في بيت إيـل

وأخيراً تُعقَدُ اليومَ في بيت إيل محكمة علنية لمحاكمة قاتل(نخميا) ، قلما تستأثر قضية بهذه الأهمية وهذا الحضور الصحفي والحقوقي والاجتماعي، ذلك أن مقتل العجوز (نخميا) أثار ألما أخلاقيا عند كل الذين سمعوا الخبر بالإذاعة والتلفزيون، أو قرأوه بالصحف أو تناقلوه عبر الألسن والأحاديث الجانبية، وبدا المجتمع الإسرائيلي كأنه لم يسمع بجريمة قتل من قبل، أو كأنها جريمة القتل الأولى التي اقترفها قابيل، (فنخميا) الذي وُجد مقتولا بشقته الصغيرة في شيلو لم يكن شخصا استثنائيا، ولا سكناه وحيدا منفردا كان أمرا غير طبيعي، ولا مقتله كرجل ثمانيني فعلٌ لم يحدث قط، إذن... هل هو عهر مجتمعي يُشْعِر الإسرائيليين أنهم يستنكرون القتل؟ وأنهم لم يقتلوا الفلسطينيين بكل بما أوتوا من سبل، أو لعلهم يرسلون رسالة للعالم أنهم مجتمع خال من قتلة محترفين لا يتركون أثارا لجريمتهم، وربما يقولون أنهم مازالوا أغرارا في الجريمة، ولم يصلوا بعد مرحلة الاحتراف.

أمس وبعد زمن كثرت فيها الإشاعات، حتى بدا لهم أنهم على أبواب عصر الجريمة المحكمة، وأن الفلسطينيين وراء كل الجرائم التي ترتكب، وجعلت علماء الاجتماع والجريمة نجوما دائمين على شاشات التلفزيون وأثير الإذاعات، أمس فقط أعلنوا عن أسم القاتل (حافير دوف) من مستوطنة شيلوه، حيث قالت بعض التسريبات الصحفية أن (نخميا) سحب أرصدته من بنك هامزراحي، وانه حملها بحقيبة جلدية علقها على كتفه، كما رصدته كاميرا التصوير خارجا يسير ببطء متثاقلا على نفسه ، وكذلك صوَّرته الكمرة الخارجية يركب سيارة أجرة .

الآن هي العاشرة صباحا، يؤتى (بحافير طوف) بسيارة مصفحة، على أعين الصحفيين والمراقبين وجمعيات حقوق الإنسان، ولا يشك أحد من الموجودين بالعقاب الحتمي لجريمة حدثت مع سبق الإصرار والترصد، ها هو ينزل، يغطي رأسه بقميص، يصوره الصحفيون على هذا الشكل، ويمضون به إلى الداخل .

في الداخل ، كل الآذان مشنفة على شفتي المدعي العام، الذي سيوضح التهم المنسوبة إليه دون أن يشوبها شائبة شك، كي لا يجدها محامو الدفاع منفذا لتبرئته، يجلس القضاة الثلاثة، ويبدأ المدعي العام مرافعة اتهامه، وبدا معنيا باستعراض الأسلوب المتطور والمنهجية العلمية التي اتبعتها أجهزة التعقيب والتحري للإمساك (بحافير)، إذ تابعوا كل الأشخاص الذين ظهروا في كمرة المراقبة الداخلية والخارجية، اعتمادا على افتراض أن أحدا كان يراقبه، وأن الرزم النقدية التي استلمها كانت

جديدة، وبالتالي لها أرقام متسلسلة، وأنها سُرِقَت كاملة من بيته بعد أن أُردي قتيلا، ذلك انه لم يحدث عراك يدوي على النقود، لذلك تم التعميم على جميع البنوك لمراقبة إيداع المبالغ الكبيرة، وطلبات فتح الحسابات الجديدة ، والتدقيق على أرقام العملة الجديدة من فئة جيمل التي أُعطيت (لنخميا)

نَبَّه رئيس المحكمة المدعي العام بأن ما يُطنب به ليس مهما في المرافعة، وأنه استطراد لا ينفع، المهم هو ما أنيط له من تهم هي صحيحة ومدعمة بالشهود والإثباتات أم لا ؟

قال المدعي العام : إن الاعتراف سيدي القاضي هو سيد الشهود بالإضافة إلى أن له سجلاً إجرامياً، إذ حوكم في هذه المحكمة الموقرة قبل فترة بجريمة قتل، ها هو قد اعترف بملاحقة المجني عليه حتى باب شقته، لم يكن(نخميا) متنبها له وهو يقف خلفه، فما أن فتح الشقة ودخل ثم استدار ليقفل الباب، ووقعت عيناهما على بعض فعرف كل منهما الآخر، دفعه للداخل، فأسقطه على ظهره، فأُفلتت منه الحقيبة، التقطها وهم بالهرب، لولا فكرة خطرت له، فعاد ليقتله خوفا من أن يشي به، فرأى في قتله منجاة له من التحقيق، فأخرج سكينا من تحت حزامه وأجهز عليه بعدة طعنات ثم تركه ينزف وذهب بحقيبة النقود .

سأل القاضي المتهم (حافير طوف) :

- هل ما قاله المدعي العام صحيحا

قال (حافير) نعم سيدي

- هل اعترفت تحت التهديد؟

- لا سيدي

- إذن فأنت تعترف بأنك قتلت (نخميا)

- نعم سيدي

- إذن أنت قتلت وسرقت

- نعم سيدي

- هل وكّلت محاميا للدفاع عنك

- نعم إنه (رافي بيساح)

- إذن فليتفضل محامي الدفاع بالمرافعة

استغرب الحضور قبول المحامي (رافي بيساح) الدفاع عن هذا المجرم المعترف بجريمته وبالتالي فإن عقوبته معروفة مسبقاً، لكن بعض الناس قال إنه للتأكد من أن الإجراءات القانونية وضمان تنفيذ العدالة سليمة .

وقف المحامي (رافي) واثقا من نفسه ، وقال

سيدي القاضي، لا أقف هنا لكي انفي عن موكلي تهمة القتل، فما بعد اعترافه من قول لمستزيد، ولكني أريد أن تسمحوا لي أن أسأله أسئلة يجيب عليها أمامكم :

- هل سبق لك يا (حافير) أن قتلت إنسانا ؟
- نعم ، قتلت الفلسطيني صيّاح القريوتي
- وهل حوكمت على هذه الجريمة ؟
- نعم
- أين؟
- في هذه المحكمة ، وأمام هذا القاضي.
- وبماذا حُكم عيك ؟
- بالبراءة

ضجت القاعة صخباً واستغراباً ،إذ توحي باتهامية الأسئلة، وتسخيفٍ لذكاء الحضور ،لكن المحامي قال :

- أنهيت أسئلتي أيها القاضي، وهذه نسخة مصورة لملف القضية التي اتهم فيها وحوكم وتم تبرئته ، وإني أضع نسخة أمام عدالتكم، لتتأكدوا من أختامها وتواريخها وتوقيعاتها، وحكم البراءة المشفوع بشهادة تطعن في سلامة عقله وحسن تفكيره وتصرفه، وإذا لاحظتم سيدي تاريخ التقرير الطبي المقدم من هيئة أطباء نفسيين وفسيولوجيين هو قبل ثلاثة أشهر، وبناء على هذا التقرير المقدم تم إخلاء مسؤولية المتهم من ارتكاب الجريمة .
- ذهلت القاعة فقال القاضي
- ماذا تريد من قولك هذا ؟
- أريد أن اسأل ، هل هذا التقرير ما زال ساري المفعول، وهل يمكن شفاؤه من مرضه العقلي هذا خلال هذه الأشهر؟
- لست انا الذي يقرر .
- وهل هذا التقرير علميٌ مستندٌ إلى فحوصات سريرية ومخبرية
- إن شئت نعرضه على خبراء لدى نقابة الاطباء .
- جيد....، إن كان هذا التقرير مازال ساري المفعول، واللجنة الطبية صادقة بتقريرها فعليك تبرئة المتهم (حافير طوف)، كما برأته سابقا اعتمادا على نفس التقرير، أو تعيد محاكمته لينال عقوبتين .

- لكن القضيتان مختلفتان.
- الاختلاف في الضحية، وليس في القضية، هل يوجد في القانون ما يفرق بين إنسان وإنسان، بين يهودي وغير يهودي؟
- طبعا لا .
- لن أجادلك هنا في مبدأ الكيل بمكيالين، ولكن أريد ان أقرر لك، بانك حينما تواطأت معه في قتل (صياح القريوتي) فأنت تواطأت أيضا لقتل(نخميا)

ضجت القاعة صخبا إذ أصبح القاضي مدانا والمحامي مدع عام والمذنب بريئا والبريء مذنبا

الفهرس



سلون مطلع القرن العشرين



مستوطنة شيلّو



عقبة الخان أو عقبة اللبن بداية القرن العشرين
وعلى الجبل الذي على يسار الصورة اقيمت مستوطنة معاليه لبونة



منظر من سنجل لمستوطنة معاليه لبونة



منظر من سنجل لترمسعيا ومن خلفها مستوطنة شيلو



مستوطنة جفعات هروئيه العشوائية.



وحشية لاستيطان



الأخوان الشهيدان بسام واسامة موسى طوافشة